وأصبت فطورى ، ذكى الشهية ، ثم ارتديت حلة الخروج ، فتصدت لى امى تقول :

ـ فيم خروجك يا بنى ؟ الم تكن ملازما سريرك منذ أيام ؟

فانبريت أقول :

ـ لزمت فراشى ، لأنى كنت مريضا لاقبل لى بالنهوض ، فأما اليوم فأنا شخص آخر ، وافر الصحة والفتوة ... أتبغين أن تتثبتى مما أقول ؟

وكشفت لها عن ذراعى ، وقلت لها اتحدى :

ـ انظرى الى هذه العضلات البارزة والعروق المشدودة اليست عضدى تشبه عضد مصارع غلاب ؟

وجعلت أثنى ذراعى وابسطها فى فورة ، ودنوت من امى اقبلها واقول :

ـ سأعمل فى شعبة الفتيان الاحرار ... سأكون رئيس الشعبة .. . قائدها الاعلى ... اعمل على اعداد جيل جديد يدرك تبعاته نحو الوطن ... لأكونن زعيما وطنيا كما كان ابى ... جديرا بأن تفخرى بى ..

وطال بيننا عناق !

العصفورة

الابوة المفجوعة تعمل بواعيتها على أن تخدع نفسها عن حقيقة الموت ، متعلقة بالوهم ، تعيش معه ، وتعيش به ، وتجد فى ذلك راحة البال ...

تواردت الاعوام على « المعلم يونس » وزوجه « شلبية » وهما يرتقبـــان الولد ، فلم يمن عليهما الزمن به ، حتى أمست حياتهما خواء ، لا بهجة فيها ولا رواء ، يرين عليهما وحشة وملال

ولكن « القدر » لا يدين بمبدأ البقاء على حال ، والركون الى وتيرة واحدة ، أبغض شيء اليه أن يرى « الحياة » على نمط متكرر لا يتغير ..

انه ليبتغى الجدة على أية صورة تكون ، من خير أو شر، ومن نفع أو ضر ، ومن تقدم الى الامام أو رجوع الى الوراء حسبه الخروج عن مألوف الاوضاع ، لكى يثير فى أعماق النفوس كوامن الاهتياج

ومن ثم طالعنا « القدر » يوما بحدث كان له أعظم الوقع فى حياة تلك الاسرة الخاملة ...

لقد رزق الزوجان طفلة !

وسرعان ما شبت فى الدار يقظة عارمة ، وأشرق فيها نور ساطع ، وجلجلت فيها ضجة وعجيج

أصبحت الطفلة — منذ ولدت — قرة عين الوالدين ، فهما يغدقان عليها فيض رعاية وحنان

وكان شأن الاب مع طفلته عجبا من العجب ، اذ باتت شغله الشاغل فى يومه أجمع ...

لم يعد يأنس الى بهجة القهوة ، وسمر الرفاق ، ولغو المذياع ...

لا يكاد يفرغ من عمله حتى يفزع الى داره يعتصم بها أى اعتصام ، واذا هو يخلو الى الطفلة ، ويغدو معها طفلا من طراز طريف ... شيخ شارف السبعين ، يتهدل على جوانب فمه شارب ناصع البياض ، تراه يحبو على الارض حبو الرضيع ، دالفا بين الأرائك والكراسى يلتمس له فيها مخبأ يواريه ، ولا يلبث أن يبعث من حلقه صيحة الفزع والرعب ، اذ تهتدى الصغيرة الى مخبئه ، فتنقض عليه ، آخذة بخناقه ، وما هى الا أن تدير حول عنقه حبلا تسوقه منه كما تساق المطية الذلول ، فينقاد الشيخ فى خضوع ، وتكركر الصبية بضحكاتها الرنانة الصافية ، وهى ممراح طروب ، يزهوها الغلب والانتصار

وعلى هذا النحو تتوالى المعابثات ، ويسود الهياج ، فينطلق « الطفلان » يعيثان فى البيت فسادا ، يقلبان أثاثه رأسا على عقب ، ويتعالى منهما الصياح ، ويشتد بهما الركض ، وهما يتدافعان ويتقافزان ، فاذا البيت قد انقلب ساحة من ساحات الملاعب ، تلك التى يجول فيها ويصول ذلك النفر من المهرجين والبهاليل

وكان هذا الصنيع يثير حنق « الأم » فتبدو صاخبة تنذر وتتوعد ، فتهدأ العاصفة على الاثر ، ولا يسمع الا تهامس خافت ، وتضاحك حبيس !

على ان « شيخ السبعين » أو بالاحرى « طفل السبعين » طالما حظى مع صغيرته بساعات سكينة وقرار ، لا استخفاء

فيها ولا انقضاض ، هى ساعات السمر العذب يقضيها الأب مع ابنته منتشيا بحديث أنيس ..

تراه يجلسها قبالته على ركبتيه ، ويلف ذراعيها حول رقبته ، ويدنيها الى صدره ، حتى لكأن قلبيهما يتجاوبان بالخفوق . وانه ليقارب بين وجهها ووجهه ، حتى ليتلاقى الخدان وتتواصل الانفاس

لقد اعتصرت سعادة الدنيا كلها فى تلك الجلسة الرخية الحالمة التى يصغى فيها الأب الى صغيرته وهى تقص عليه صورا مما مر بها فى يومها الحاضر ... فهو يصغى ولا يزال يصغى ، مستعذبا رنيم صوتها الموسيقى الخلاب

لم يكن يعنيه مما تقصه عليه من أخبارها الا ذلك الجرس والنغم ... فكأنه يستمع الى « عصفورة » تسقسق له فى نبرات حلوة صافية

عصفورة ؟ أى والله عصفورة !

أليست صغيرته شبيه هذا الطائر الرشيق الجميل ؟

انها عصفورة فى خفة وثباتها على الأرض ، كأنما لها أجنحة تهفو بها فى الهواء ، عصفورة فى رشاقة قدها الضئيل الغض ، عصفورة فى شمائلها اللطاف وهى تهز رأسها الدقيق يمنة ويسرة ، رامية بنظراتها اليقظة الألاقة هنا وهناك . عصفورة فى لحن حديثها الأغن ، لحن البلابل حين تتناجى على الغصون فى الليلة القمراء !

انها عصفورة فى كل شىء مما لها من خصائص وسمات ، حتى أن الأب لم يعد يذكر لها اسما الا اسم « عصفورة » يجريه على لسانه كلما ناداها وناجاها :

تعالى الى أحضانى يا « عصفورة » ... اسمعى منى حكاية يا « عصفورة » ... قبلينى يا «عصفورة» .. أبوك يحبك يا «عصفورة»...كيف قضيت يومك يا«عصفورة»؟

وكان أول ما تلفظه الطفلة من قول ، وهى ترحب بأبيها فى أوبته الى البيت حين تهرع اليـه باسطة ذراعيها فى تشوف ، أن تسأله :

ـ ماذا احضرت اليوم معك لعصفورة ؟

فيخرج لها قرطاسا من حلوى ، أو لفيفة تنطوى على لعبة ملونة ، أو حلية من معدن براق

فتجتذب « العصفورة » هديتها على تشوق واهتياج ، وهى تتصايح وتتواثب فى خفة ذلك الطير الرشيق !

وفى يوم من أيام « الجمعة » ترك الأب المسجد بعد أن أدى الصلاة ، وساقته قدماه فى طريق غير الذى ألف ان يعود منه ، فاخترق دربا لم يكن له به عهد ... وصادفه بائع فطير يعرض بضاعته على صينية رحيبة ، تقوم على محمل من جريد ، ينتحى بها جانب الدرب المسلوك ... واجتذب ناظره مرأى الفطائر وهى تلتمع فى شرابها المتسايل متألقة فى وهج الشمس ، فألفى خطاه تحيد نحوها ، وأحس بأنفه يتشمم عبير الشراب الذكى ، وخطرت « عصفورة » بباله على الفور ، فهذا الفطير خير ما يقدم لها فى « يوم الجمعة » المبارك . وعجل الرجل الى البائع يشترى منـه فطيرة سمينة تغرق فى شرابها اللماح ، وانتهى الى داره يحمل الفطيرة فى دثار من لفائف واقية

ولمـا تخطى عتبة الدار ، برزت له الصبية قافزة تسأله

ماذا جلب لها معه ، فاقتعد الأرض ، وأجلس « عصفورة » على ركبتيه ، وفض اللفيفة ، فتجلت الفطيرة منتفخة شامخة تسبح فى شرابها الشهى ، فصفقت الصغيرة من طرب ، وصاحت تقول :

ـ أهذه لى ... كلها لى ؟

ـ هى لك كلها يا « عصفورتى »

وطفق الأب يقتطع من الفطيرة لقيمـة اثر لقيمـة ، و « العصـفورة » تتلقى اللقيمـات فتلتهمها فى نشوة ، فسألها أبوها :

ـ هل أعجبتك الفطيرة ؟

ـ حلوة ... حلوة !

ولم تلبث أن تشبثت برقبته ، وقبلت فمه قبلة جامحة أحس الأب على أثرها بالشراب الحلو يندى شفتيه ، فلعقه مستطيبا اياه ، وقال :

ـ سأحمل اليك كل « يوم جمعة » فطيرة مثـل هـذه الفطيرة ...

وبر الأب بوعده ، فدأب على أن يخترق الدرب المعهود ، بعد ان يفرغ من صلاته ، ويقصد الى بائع الفطير فى ركنه الأمين ، يتخير من فطائره فطيرة سمينة ريانة بالشراب المعسول ، ويعجل بها الى داره ، فيطعم عصفورته اياها لقيمة لقيمة ، وهو جذلان النفس بما يرتسم على محياها الوادع من بشر وابتهاج

واحتلت « فطيرة الجمعة » من قلب « العصفورة » أسمى مكان ، فكانت تتحدث عنها ، وترتقب موعدها ،

فيزداد الأب من حرص على شرائها كلما انفتل من صلاة الجمعة ، وانه ليذكرها فى قيامه وركوعه وسجوده ، وهو يكبر الله ويسبح له فى هذا الحشد الزاخر من المصلين ، متمثلا عصفورته وهى تطعم اللقيمات مستمرئة ، يتسايل على جوانب فمها الشراب اللماح

وتواصلت الايام ، فتواصلت معها هذه الحياة الجياشة التى ارتجت بها انحاء الدار ، بعد أن كانت مثابة الملالة والعبوس والاستيحاش

ترى ماذا كان من أمر « القدر » ازاء هذه الدار التى استقر بها القرار ؟

أترى « القدر » ضاق ذرعا بما يترسل على الدار من اشراق ولألاء ، اذ وجد فيه لونا من الثبات والاستمرار لا يتفق وجوهر الحياة ؟

هل يرضى « القدر » حالا واحدا ، ونمطا راتبا ، لا يعروه تحويل ولا تعديل ؟

ان دوام الحال من المحال ، وأن « القدر » ليحن الى أن يجدد فى الأزياء والأنماط والصور ، فلتأخذ تلك الدار نصيبها من تجديد لا معدى عنه لشىء فى هذا الوجود !

رفع « القدر » صولجانه الخالد ، وهزه فى الفضاء هزة خفيفة ، فاذا « العصفورة » يدهمها مرض عضال ، واذا هى تقضى نحبها فى سويعات قلال !

وهكذا طارت « العصفورة » من عشها الأمين ، فطار معها الاشراق واللألاء ، وطارت اليقظة والصخب البهيج ، وعاود الدار خمول وكآبة خرساء !

أجل ، عاود الخواء هذه الدار من جديد ، ولكنه خواء كله تعذيب وتلويع وايلام ، خواء يطعن ولا يقتل ، يطحن ولا يفنى ، يميت القلب كل ساعة ثم يحييه ليعانى كربات الموت عودا على بدء !

ومرت الأيام ...

وجثم على صدر « المعلم يونس » تبلد ما أشبهه بسبات عقيم ... لكأنه تائه فى أضغاث حلم مفزع مهوش ، تتنافر فيه المشاهد ، وتتباين الصور والاوضاع ...

وكان أحيانا تتخايل له فى أعطاف هذا الحلم مرائى عزيزة عليه ، محببة اليه ، ينعم بها لحظات فى أعذب الذكريات ...

ولكن سرعان ما تتكاثف الغيوم حواليه ، ويعلو زئير العواصف دونه ، وتثور الكائنات أمام عينيه مسعورة ، كأنما قد أصابتها جنة ، وتهطل الأمطار الغزار متدفعة ، كأنما السماء قد انشقت فاندفق السيل الحبيس ، وتدور بالرجل غوارب الموج بين تصعيد وتصويب ...

فاذا أمسكت العواصف ، وصحت السماء ، استيقظ الرجل يمسح فى مآقيه بقايا الدمع السخين ... وبغتة ينبثق فى رأسه خاطر ، فينهض مستوفزا يتلفت وهو يسأل :

— أليس اليوم « يوم الجمعة » ؟

ويجد الرجل فى سيره على الطريق نحو المسجد ، ويقف بين صفوف المصلين مصغيا الى شيخ المنبر وهو يقرع الأسماع بوعظه الرنان . ولكن الرجل لا يعتم أن تبرز فى مخيلته « فطيرة الجمعة » مالكة عليه مشاعره ، فيتمثلها

على صور أشتات ، كيف كان يتخيرها سمينة ينساب فوقها شرابها اللماح ؟ كيف كان يطويها فى دثارها من ورق غليظ ؟ كيف كان يحرص على أن تظل منتفخة سوية حتى يبلغ بها الدار ؟ كيف كان يجلس « عصفورته » على ركبتيه ليلقمها الفطيرة قطعة بعد قطعة؟ كيف كان يرقب ذلك الفم الدقيق وهو يزدرد اللقيمات فى شغف واستمراء ؟!

واشتد وجيب قلبه ، وهو بين يدى الله يؤدى الصلاة فما كاد يخرج من صلاته بالتسليم يمنة ويسرة ، حتى مرق من الصفوف يختطف نعليه ، ويعدو الى الدرب المعهود

ذلك هو بائع الفطير فى ركنه المختار ، وأمامه الصينية تتراصف عليها الفطائر المبرقشة وهى تتألق فى وهج الشمس ... انه ليدنو منه ، وانه لينتقى فطيرة سمينة يطويها فى دثار غليظ ، وانه لينصرف متابعا سيره ... ولكن الى أين ؟!

هاهوذا ينحرف عن الطريق المفضى الى الدار ، ويتخذ سبيله الى الصحراء ... خطواته سراع ، وأنفاسه مبهورة، ويده تحمل اللفيفة فى عناية وحرص ... أثمة من يرتقب وصوله ، فهو لا يستأنى فى سيره ، حتى لا يطول انتظار من ينتظره هنالك فى عالم الصمت والسكون ؟!

تابع الرجل خطاه ، وعيناه ثابتتان فى محجريهما كأنهما عينا تمثال لا تطرفان ، وقلبه يخفق كأنه بين جنبيه طائر يرفرف بجناحيه

وأخيرا لاحت له المدافن ، تحتل بسيطا من الارض ، كأنها مدينة عامرة ، فهذه أبنية مشيدة ، ومسالك ممهدة ،

وتلك رياض خضر ترويها الجداول وتنبت فيها الوان الأزاهير

وانتحى الرجل ناحية متواضعة مستوحشة ، تتعالى فيها الرمال ، وتتناثر الاحجار ، وتتطامن بينها قبور عفت عليها الأيام ، وعملت فيها يد البلى والانهيار ...

وهنالك ، أمام قبر صغير ، يبدو من طلائه الأبيض الناصع أنه حديث عهد باستقبال ضيف ، مثل الرجل خاشعا يهمهم بأدعية وتسابيح ... وما هى الا أن افترش الأرض ، وحل وثاق اللفيفة ، فتجلت الفطيرة رقراقة الشراب ، فانكب عليها الرجل يقطعها لقيمات صغيرة فى تمهل وتنسيق ، وأحس أصابعه يتساقط منها الشراب قطرات ، فجعل يلعقها مستعذبا ما لها من مذاق ، وعلى فمه طيف ابتسامة يسنح كما يسنح الأمل الشرود

ونهض الرجل يحمل اللقيمات بين يديه ، ثم دنا من القبر فى رفق ، وطفق ينثر على حافته لقيمة لقيمة ، وعاد الى مجلسه يولى القبر نظرات شوق وتحنان ، وتثاقل جفناه ، فأرخاهما يتهادى به سبات

واستيقظ « المعلم يونس » يستمع الى صوت أغن ، خيل اليه أنه يناديه ... وحانت منه لفتة ، فاذا هو يرى « عصفورة » رشيقة فوق الجدث تحلق وتسقسق ، فجعل ينظر اليها بمجامع عينيه ، فاغرا فمه ، وقلبه يزداد به وجيب . وما راعه الا أن لقيمات الفطيرة التى نثرها على حافة القبر لم يبق منها الافتات ...

ترى أين ذهبت اللقيمات ؟

ودار بعينيه يمنة ويسرة ، وجعل يتبين على مد البصر هنا وهنالك ، فلم يظهر له أحد ... الا هذه العصفورة التى تتواثب فى نشطة ومراح ، وهى تلتقط نثار الفطيرة على حافة القبر ، ثم تبسط جناحيها ضاربة فى الفضاء ، ثم تهبط على القبر مطيفة به ، حائمة فى تطوافها على الاب الجالس على أديم الارض ، تسقسق له بصوتها الاغن ،والاب متعلق النظر بها ، لا تحيد عيناه عنها ، وكأن قلبه يتابع خفوقها بخفوقه ...

ولبثت « العصفورة » على ذلك بعض وقت ، ثم تسامت فى جو السماء ، وأغرودتها تنساب حواليها وتتزايل معها فى رقة وترنيم ...

رجع «المعلم يونس» الى داره يهرول ، وبين حناياه اهتياج، فما بلغ الباب حتى صاح ينادى زوجه مجلجل الصوت :

« شلبية ... شلبية » ...

وعجلت اليه الزوج ، فبادرها يقول متلاحق الانفاس :

ـ الا تعلمين الخبر ؟

ـ أى خبر ؟

ـ لقد أكلت هى نفسها الفطيرة كلها ...

ـ من يا رجل ؟

ـ هى ... هى ... « العصفورة » ...

فغام وجه المرأة ، وقالت لزوجها فى لهجة محزونة :

ـ أى عصفورة يا معلم يونس ؟ ... « العصفورة » اختارها الله ... عند الله ... الصبر بالله !

فقال لها الرجل فى شىء من الحنق :

ـ اقسم لك على ما أقول ... الا تصدقيننى ؟ لقد رأيت روحها تطير فوق القبر ، «عصفورة» تتحدث الى، وتأنس بى، وتقبل على الفطيرة تأكلها فى تلذذ واستمراء ... انها هى لاشك ... ألست مؤمنة ؟ سبحان الله القدير !

ونظرت الزوجة الى رجلها وقد عرتها دهشة أسلمتها الى سهوم ، وقالت فى همهمة :

ـ روحها ... « العصفورة » ... تطير فوق القبر ...

وحدقت فيه مستطلعة ، فظل يردد قوله ، ويؤكده جهير الصوت ، ووجهه تفيض عليه غبطة وسماحة وارتياح

ومنذ ذلك اليوم ، دأب « المعلم يونس » على ان يشترى الفطيرة المعهودة بعد صلاة « الجمعة » ، وأن يذهب بها من ساعته الى المدفن ، لكى يقدمها الى « عصفورته » ...

وعاش بذلك هانىء البال !

ام سحلول

هل يستسلم الانسان لعجزه ؟
انه يحاول ان ينتزع من الضعف قوة ، ومن الضعة رفعة ، وان كانت هذه القوة والرفعة فى حياة أخرى غير حياته ... بل بعد حياته !

أتراك من رواد المساجد فى يوم الجمعة ، تختلف اليها لاداء الصلاة الجامعة ؟

ها انت ذا قد فرغت من الصلاة ، فتأبطت حذاءك ، متهيئا للخروج ، ومثلت بالباب تعـالج انتعال الحذاء ، والجمع الدافق حواليك يدعوك الى الاسراع

ألم تحس مرة وأنت فى هذا الموقف بشىء يأخذ برجلك، يحاول أن يعينك فى عملك ، وهو مكب بطرف ثوبه المهلهل على الحذاء يميط عنه الغبار ، ولسانه يلهج بدعاء فيه ضراعة وتشفع واسترحام ؟

لا عليك أن تعنى نفسك بتفقد هذا الشىء الجاثم عنـد قدميك ، فهو معهود لديك ، ليس بالغريب عنك ، ولا حيلة لك فى أمره الا أن تلقى اليه بقطعة من النقود، وأنت تهمهم :

ــ ام سحلول ... دائما انت ؟

فتتقبل المرأة منحتك فى بشاشة ، ولا تلبث أن ترفع يديها الى السماء تستمطرها خيرا لك ، وبركة عليك ، ثم تنحرف عنك الى غيرك ، محنية الهامة ، قميئة القامة ، تأخذ بطرف ثوبها المهلهل الى وجهها تمسحه ، ثم تخص به أنفها تتمخط

« أم سحلول » ... وهل يجهلها من أهل المساجد أحد؟

انها هى منذ خمسة وعشرين عاما ، تدرج ذليلة المشية ، مهزولة البنية ، فى أسمال زرق !

لا تراها أبد الا مخفوضة الرأس ، كأنها تقتفى مواطىء الاقدام ، أو كأن بعينها داء لا تستطيع معه أن تواجه الاضواء ، فهى تتحاشاها بالاطراق

لا تسمع منها أبدا الا تلك النغمة الواهنة المستضعفة ، وهى منكفئة على نعال المصلين ، تستعطف قلوبهم حين تقول :

ــ ارحموا اما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

عرف الناس « أم سحلول » بهذه الميزات الخاصة، واكثر من ضاقوا بها ذرعا هم أولئك السائلون الذين وجدوا فيها منافسا خطيرايزحمهم على الكسب الميسور، فكانوايناوئونها بمختلف الوان المناوأة ، يتعمدونها بالضرب الوجيع ، ويغتصبون منها ما جمعت من عطايا ومنح ، ويصدونها عن السبيل كلما أقبلت على السبيل

بيد أن المرأة صابرت ورابطت ، واحتملت ما تلقى من عنت واضطهاد ، وظلت تتنقل على أبواب المساجد ، تتصيد من يصدر عنها من المصلين ، تعينهم على انتعال الاحذية واماطة الغبار عنها ، كأنها تهم بتقبيلها تذللا ومسكنة

لم تكن « أم سحلول » محببة الى رفاقها من أهل السؤال والاستجداء ، ولم تكن كذلك فى الاحياء التى تلم بها محببة الى الأهلين من عامة الناس ، فهم ينفرون منها ، ويضجرون بها ، ولا تكاد تجد عندهم قبولا ولا حظوة

وكانت « أم سحلول » تعجب من أولئك الذين يفسحون صدورهم للسائلين دونها ، اذ يفوتها أن الاستجداء يجب

أن يحاط بمظهر براق ، حتى يبلغ من النفوس مبلغ الاشفاق فلابد ان يكون صوت الضراعة على ضعفه جهيرا يهز المسامع، ولابد أن يكون للمستجدى من الضمدات والخرق والعكازات ما يسترعى الانظار ... وهذه المرأة المسكينة لا تتمتع بشىء من تلك المؤثرات جميعا ، فلا جراح دامية ، ولا قدم متورمة ، ولا عمامة خضراء تناطح الجوزاء ، وليس لها ذلك الصوت الابح المتسلخ يتعالى به حلق صاحبه كأنه ثورذبيح يسلم الروح

لقد عجزت « ام سحلول » عن ان تكون من طائفة المتسولين العتاة ، فما هى بشحاذة توافرت لها أدوات ذلك الفن الاصيل ...

هى آدمية اختارت لها الاقدار ذلك الحظ من التشريد ، وهى تكافح وتنافح لكى تكفل طفلها الوحيد ...

لم تكذب المرأة فى دعواها ان لها طفلا يتيما ترعاه ، ولولا هذا الطفل لكان لها مصير غير ذلك المصير ، وأغلب الظن أنه لولا طفلها هذا لودعت حياتها منذ عهد بعيد ، ولكنها يوم احتضنته وليدا أحست شعلة الامومة تتقد بين جنبيها أيما توقد ، فبنت عزمها على أن تحيل تلك المزقة الحية التافهة كائنا له مكانة وخطر

مضت خمسة وعشرون عاما ، والمرأة خلالها تلوذ بأبواب المساجد والضرائح مستجدية ، وما برح لسانها يتضرع الى المحسنين بتلك الجملة الخالدة التى لا يعتريها التغيير والتبديل :

ــ ارحموا أما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

أترى يلبث ابنها اليتيم طفلا تلحق به صفة الطفولة واليتم على مر السنين ، وان جاوزت خمسا وعشرين ؟!

ألم تدرك « أم سحلول » أن طفلها قد كبر وترعرع ، حتى صار شابا رائع الشباب ، يسعى فى الحياة سعى العاملين ؟!

انها لتأبى الا أن تعده ما برح طفلا وان بلغ مبلغ الرجال وان انفصل عنها يكدح ويغامر ، فهو على الرغم من كل شيء ذلك الطفل المستضعف المهيض الجناح ، لا غنية له عن كفالة أمه ترعاه وتحدب عليه !

نشأت « أم سحلول » فى كنف رجل جزار يعمل فى المذبح ، كأنما صاغته الطبيعة ليمثل طائفته من الجزارين خير تمثيل : قامة فارعة ، وألواح عراض ، وشارب غليظ مسنون يقف عليه الصقر كما يقولون فى الامثال

نشأت هذه المرأة فى كنفه ، وهى صبية لا تعرف من ماضيها أى شيء ، أصابها فى بعض الطريق طفلة لا تكاد تبين ، اذ التقطها رأفة بها ومرحمة ، فاليه يرجع الفضل كل الفضل فى بقائها حية كسائر الاحياء

ذلك ما كان يردده الرجل على سمعها صباح مساء ، وهو مزهو يفتل شاربه ، فلا غرو أن تؤمن بما له عليها من منة ، وأن تجزيه على احسانه اليها ولاء موصولا وطاعة عمياء ، تخلص له فى الخدمة وان أغلظ لها فى القول ، وتضطلع بأعبائه وان قسا عليها فى المعاملة ، وما أكثر ما عانت من عربدته حين يئوب اليها فى جوف الليل ، سكران يترنح . . . على رأسها يصب ما فى رأسه من نزوات الخمر !

كان مولاها وسيدها هذا لا يفتر عن تذكيرها بما لها من ضآلة وتفاهة ، وهو الذى دعاها « أم سحلول » قبل أن تبلغ الحلم ، تهاونا بها وسخرية ، فحملت هذه الكنية قبل أن تعرف كنه الامومة ، وتقبلتها دون أنفة ولا تذمر ، واستقر فى أعماق نفسها أنها كما ينعتها مولاها وكما ينعتها سائر الناس من حولها أحقر مخلوقات الله جميعا وأبشعهن صورة . . .

وانساقت الاعوام بتلك الصبية ، حتى جاوزت السادسة عشرة ، وهى على حالها مخلوقة لا تحنو عليها الطبيعة بشيء من فتنة الانثى ، ولا حظ لها من العيش الا هذا اللون الدائب من المهانة والمقت والاذلال

ويوما ألفت نفسها شريد طريق ، لا عائل لها ولا مأوى أين سيدها ومولاها ؟ لم تدر من شأنه الا قول الشرطى لها :

— انه لن يعود !

وصافحت سمعها أقاويل عن سيدها ، يتناقل الناس فيها حديث القاتل الذى ينتظر مصيره المحتوم ، مشنقة الاعدام !

فارتاعت لما تسمع ، ولكنها لم تستجل الامر على حقيقته . . . وعلى مألوف عادتها أذعنت لما تواجهها به الايام من أحداث

لم تملك « أم سحلول » الا أن تودع ذلك الحى الذى عاشت فيه ردحا من الزمن ، وتركت نفسها نهبا لغمرات الحياة ، خائرة القوى ، مشدوهة حيرى ، لا تعرف كيف

تنقل خطاها ، وأوشكت أن تهوى بها الغمرات الى القرار . ولكن سرعان ما أحست شيئا يختلج فى أحشائها ، كأنه يعلمها بوجوده ، واستبان لها الامر ، وخيل اليها أنها تسمع هاتفا رخى الصوت يقول :

ـ لقد جئتك من عالم الظلام المجهول ، فماذا أنت صانعة بى ؟

وبغتة شعرت المرأة بيقظة تدب فى أوصالها ، فاندفعت تبكى ، ثم انثنت تضحك ، واستبد بها هياج يختلط فيه الضحك بالبكاء

منذ ذلك الحين عرفت « أم سحلول » أن لحياتها شأنا أى شأن ...

منذ ذلك الحين أيقنت ذات الجنين أنها لم تعد تافهة كما كانت من قبل ...

انها كسائر الكائنات يجب أن تعيش وأن تكدح ...

لقد أصبحت « أما » ، وحسبها ذلك من دافع وحافز ، وهل تركت الامومة بعدها فخرا تعتز به الانثى ؟

تلك هى « أم سحلول » بحق ... « أم » فى عالم الكرامة والتقدير والاعتبار ، لا فى عالم الوهم والسخرية والاحتقار!

عرفت المرأة طريقها الى المساجد والاضرحة ، هدتها اليها الفطرة الساذجة ، وأتيح لها فى ذلك الميدان جانب توفيق ، فحمدت الله ما أفاء عليها من نعمة طيبة ، وثابرت على خطتها فى نشاط وحمية ، حتى استطاعت أن تؤسس لها مأوى فى زقاق من أزقة « التربيعة » : حجرة ضيقة مستهدمة ، لا يهتدى اليها ضـوء الشمس فى شتاء أو صيف

وما احتياج المرأة الى الضوء حين تئوب الى مأواها المختار؟ انها لتلبث عامة يومها تذرع الطرقات ، وتتردد على أبواب المساجد والضرائح ، تلوك فى فمها المضغة المعهودة لكل من تلقاه :

ـ ارحموا أما تكفل طفلها اليتيم ... ارحموها يرحمكم الله !

فلا يكاد يدبر اليوم حتى تكون المرأة قد أثقلها التعب ، وأعياها الطواف ، فهى تأنس فى حجرتها الضيقـة بذلك الظلام الذى يهدى الى جسدها الراحة والدعة ويسبغ على نفسها السكينة والهدوء

فى هذا المأوى وضعت « أم سحلول » وليدها المرتقب ، وبين جدرانه كان منشؤه ومرباه ، ومنه خرج سليل الظلام يستقبل نور الحياة فى دنيا الامل والعمل والكفاح

وحرصت تلك الشريدة الطريدة ، ربيبة المهانة والبأساء ، على أن تحوط ذلك الوليد النابت بالرعاية ، وأن تحميه من عوامل البؤس والتشريد ، وأن تحيله كائنا له فى الدنيا مكانة وخطر ، على نحو ما كانت تبغى أن يكون !

لطالما أخذت « أم سحلول » طفلها بين يديها ترقصه فى تلك الحجرة المعتمة على بصيص من ذبالة المصباح الاعفر وهى تناجيه بقولها :

ـ لتغدون أعظم من أبيك ... وليكونن لك شأن !

ثم تضمه الى صدرها فى شغف ، وفمها على فمه ملتحمان فى قبلات يسيل منها دمعها الحنون

وكلما وقع بصرها على رجل مهيب الطلعة ، وجيـه الشارة ، ناجت نفسها تقول :

ـ لماذا لا يكون ابنى مثل هذا الرجل ؟ ... فليحرسه الله !

فان مرت بدار أنيقة المظهر ، رفيعة الطباق ، شخصت اليها تقول :

ـ لماذا لا يسكن ابنى مثل تلك الدار ؟ ... فليحرسه الله !

وان جازت بها سيارة فارهة المنظر ، لامعة الطلاء اتبعتها نظرها تقول :

ـ ليكونن لابنى سيارة كهذه السيارة ... فليحرسه الله!

واستمرت المرأة تعمل ، ناشطة السعى ، تزداد من تشبث بالحياة ، وتضطلع بما تجابهها به أعباء العيش ، من أجل طفلها المرموق ... تحرم نفسها القوت لتطعمه من الطيبات، وتقنع من الكسوة بالمرقعات لتكسوه المستجاد من الثياب ، ولا تفتر عن تنظيفه وملاحظة هندامه على حين تبدو هى فى أوضار وأقذار

وما أن استطاع الغلام أن يفهم عنها حتى كان أكثر حديثها معه نصحها له بأن يكون مهذب النفس ، موفور الكرامة ، رفيع المقام ... تكرر ذلك على سمعه قبل أن تنصرف عنه مصبحة ، وبعد أن تعود اليه ممسية ، وهى فيما بين ذلك غارقة فى الاذلال والامتهان ، تريق ماء وجهها طول النهار بالاستجداء ، وتنمى ثروتها على الايام بما تدخر من عطايا الكرام

ترعرع الغلام ، وايفع ، وضمته معاهد التعليم ، وتلقى فيها ضروب المعرفة ، فأقبل على درسه ماضى الهمة، مرهف

الفطنة ، تلهب أمه من عزمه ، وتبصره بأن الحياة صلابة وجد ، وأن النجاح سبيله الاستماتة فى الكفاح

ولما شب الفتى عن الطوق ، أفردته « أم سحلول » فى حجرة لائقة به ، واختارت له هذه الحجرة فى بيت حديث البناء يقوم على ناصية « الشارع الكبير » كما كانت تسميه ... أما هى فاستبقت ذلك الجحر المعتم تحيا فيه حياتها الراتبة

وكانت تؤم حجرة ابنها تقوم فيها بالخدمة ، فتغسل الثياب ، وتنظف الاثاث ، وتطهو الطعام ... فان اضطرت أن تتحدث الى بعض الجيرة أوهمتهم أنها كانت على صلة بأسرة الفتى ، وأنها تعلقت به ، وأخلصت له ، وستبقى على العهد تخدمه

واحيانا يسألها الفتى :

ـ لماذا لا تقيمين معى يا أماه ؟

فتخفض « أم سحلول » بصرها ، وتأخذ بطرف ثوبها تثنيه وتبسطه ثم تجيب :

ـ دعنى وما أنا فيه يا بنى ، فان لك شأنا غير شأنى... أنا « أم سحلول » .... عرفت حياتى وألفتها ... ولن أغيرها ما بقى لى وجود ... أما أنت فلك عالمك ومستقبلك، تحيا فيه وتنعم به ، وتتملى ما فيه من سعادة وعزة ورقى ... فليحرسك الله !

ثم تسمو بهامتها اليه ، تستطلع اثر حديثها فى وجهه ، وقد انتفضت نفسها بالحنو ، ونديت عينها بالدموع

وترادفت أعوام ، والمرأة تنفق على ولدها فى سخاء ،

وتشرف على تربيته وتخريجه بوحى من بصيرة الام الرءوم

واقتحم الشاب ميدان العمل ، فأسند اليه منصب فى احدى الشركات يدر عليه من الرزق ما يكفل له عيشة راضية ، فانتقل الى شقة فاخرة ، واقتنى سيارة انيقة ، واصطنع الخدم يقومون بشأنه ، وأمه على حالها فى جحرها العتيق ، تزهو بسعيها الموفق ، وثمرتها الناضجة ، وتنشد لعزيزها النماء والمزيد

ولقد اقلت من زيارتها له ، حتى لا تثير الشبهات من حوله ، فكانت تحرم نفسها رؤيته ، لكى تجنبه ما يعكر صفوه ويشوب هناءته ...

ولشد ما عالج ابنها أن يجتذبها الى مسكنه ، وان يقرها فيه ، فأبت عليه ، وأصرت أن تدعه كما هو وحده ، وان تكون هى عنه بمعزل ، لا تبغى بحياتها من بديل

وجعلت المرأة تشتد فى جمع المال أكثر مما كانت تفعل ، فهى تعمل جاهدة فى الاستجداء ، حتى يتوافر لها قدر من المال عظيم ترصده لغرض معلوم

حق لابنها أن يتزوج ...

ذلك هو شغلها الشاغل ، وتلك هى أمنيتها الغالية ، فلتبذل ما أوتيت من جهد لكى يكتمل لها من المال ما يصلح أن يكون مهر عروس ، وما يتبع ذلك من تكاليف أفراح الزفاف

لن يهدأ لها بال حتى ينعم ابنها بالزواج ، فتكون له امرأة انيسة يرزق منها بالذرية الصالحة ...

لن يطيب لها عيش حتى يهنأ ابنها فى ظل أسرة يحوطها الصفاء والوئام ...

حتم أن يسعد ابنها بكل ما حرمتها الاقدار اياه ...

ليس ابنها فى الحق الا صورتها الاصيلة ، بل هو جوهرها الخالص ، بل انه هى نفسها لا ريب فى ذلك ولا نزاع ... فكل ما يستشعره هو من رفاهة ونعيم تحسه هى كاملا غير منقوص

انها لتأكل طعامه وتستمرئه، وان لم يمس شفتيها مذاقه

انها لتحيا حياته ، تتقلب على وثير فراشه الملون بألوان الزهر والريحان ، وتتنقل فى سيارته ذات البوق الرنان ، وان كانت فى جحرها الخرب ماكثة لا تطأ الشقة الفاخرة الا خلسة تخشى أن تقع عليها العيون ، ولا ترى السيارة الا خطفا حين تنهب الارض فى معاطف الطريق

انها لتحس ما يحس ابنها من عزة وكرامة ، وان ظلت على أبواب المساجد والاضرحة مبسوطة الكف للسؤال ، منحنية على مواطىء الاقدام تمسح النعال

لم تبق لها من متعة فى الحياة تهفو اليها الا أن تشعر بالفرحة الكبرى : « فرحة الزواج »

فليتزوج ابنها عما قليل ، وليكن زواجه فى حفل بهيج ، يجتمع على موائده الكبراء والسراة والحكام ، وتصدح فيه الموسيقى بآلاتها الضخمة وأنغامها العذاب ، ويصطف رجال الشرطة بالابواب يرفعون أيديهم بالتحية للقصاد ويهيمنون على النظام !

ليكونن الحفل عظيما تتحدث عنه المدينة بأروع ماتتحدث عن الافراح والليالى الملاح !

وتم « لام سحلول » ما كانت تريد

خطب ابنها « بنت الحلال »، فتاة كريمة العرق ، وسرعان

ما ضرب لحفل الزفاف موعد قريب

وحل اليوم العظيم ، ذلك الذى ترتقبه « أم سحلول » منذ عهد بعيد ، ولقد أكرمها الله اذ حباها بما كانت تصبو اليه ، فما يكون لها بعد ذلك من مطمح فى الحياة

فى هذا اليوم تختتم مرحلة الشقوة والكد والعناء ، لتبدا مرحلة جديدة من الطمأنينة والهدوء والاستقرار

فى هذا اليوم تكمل رسالتها فى ذلك الوجود ، وتتم انجاز واجبها الذى ناطته بها الاقدار

واضطرمت فى نفس المرأة حيوية لم تعهدها من قبل ، واستشعرت قوة واقتدارا لم تعرفهما فى ماضيها الغابر ، فذلك انقلاب شامل يطرأ على تلك النفس المستكنة المتخاضعة اللائذة بالصمت والظلام

انها مخلوق جديد لا يمت الى شخصها القديم بنسب قريب أو بعيد

لقد اختارت اليوم لنفسها اسما مستحدثا تعرف به : « أم البك »

ولقد أرسلت من يشيع فى بيت ابنها أن « أم البك » قدمت من الضيعة فى الصعيد الاعلى لتشهد وحيدها العزيز فى حفل زواجه السعيد

وقضت « أم البك » يومها الاطول تتنقل بين « البلانة » و « الماشطة » فى الحمام ، وبين أيدى النساء يشرفن على زينتها وملبسها فى بيت خياطة مشهود لها بالمهارة والاتقان

ولما توارت شمس النهار لتسمح لشموس الحفل من المصابيح الكهربية ان تتوهج مختلفة الالوان ، بدت « أم سحلول » وسط الجمع تتخطر ، تارة تحيى الضيوف فى

وقار وشموخ ، وتارة تطارحهم الحديث فى أنس يمازجه ترفع ، واذا هى تلتفت بغتة ، لتصدر الاوامر فى سطوة واعتزاز ، جهيرة الصوت ، مرفوعة الهامة ، كأنها قائد فيلق فى موقعة فاصلة

لقد ظهرت « أم سحلول » فى حلة قشيبة زاهية. تطول قامتها بما انتعلت من حذاء عالى الكعب أنيق ، ويمتلىء جسدها بما احتشت من أثواب أشتات ، ويعلو صدرها بما ركب فيه من حشيتين ناهدتين ، بدت بهما المرأة كأنهـا عذراء كاعب

ولقد أجادت الماشطة عملها أيما اجادة ، فأخرجت من المرأة حسناء مكحولة الجفن ، مزججة الحاجب ، مكسوة الشعر بالسواد اللامع ، مطلية الوجه بأخلاط العبير والمساحيق ، مصبوغة الشفة بالحمرة القانية ، حتى غدت كأنها دمية للزينة زاهية الالوان

ورئيت « أم سحلول » تنساب من بين أناملها العطايا والمنح ، فتتلقفها جوقة الغناء والرقص ، ويتلقطها الخدم والحشم ، وانطلق الهتاف « بأم البك » تتقاذف به الافواه فى حفاوة وتكريم واعجاب ، وانبعثت أنظار الجمع تتحلق حول « أم البك » سائرة فى تبختر وخيلاء ، وهم يفسحون لها الطريق ، ويحنون من هاماتهم فى تجلة واكبار

وتصدرت « ام سحلول » مقصف الحفل ، وطفقت توزع بيديها ما لذ من الطعام وما طاب من الشراب ، سخية بالاعطاء ، ملحة فيه ، حتى لم تدع أحدا الا نولته من فيض خيرها العميم

ثم عدلت عن المقصف تريد الطريق ، والخدم من ورائها

يحملون قصاع الثريد وصحاف الحلوى ، واذا هى تطعم العفاة المزدحمين بباب الدار ، فتعالت أصواتهم يمتدحون « أم البك » ويدعون لها أخلص الدعوات

وانقضت ساعات الليل ، والحفل ساهر فى طرب ومراح لا يخبو له رونق ، و « أم سحلول » تتراءى كأنما هى العروس ، وما زوج ابنهـــا الا احدى الوصائف فى حفل الزفاف

وفى مبرق الفجر تزايلت أضواء المصابيح ، وتخافتت أصوات السمار ، وما هى الا أن أطبق السكون العميق على جوانب الدار

وصعدت « أم سحلول » الى غرفة أعدت لها فى السطح، فتخاذلت أوصالها على فراش وثير ، تسترسل بها الاحلام فى شتى الاجواء

وفى ساعة الظهيرة حين جليت مائدة الغداء ، قصد الى الحجرة رسول يوقظ المرأة من النوم ، لتشرك الاسرة فى الطعام ، فألفاها الرسول جثة بلا حراك

وكان أكبر شىء يسترعى النظر فيها ما يتجلى على محياها المشرق من صفاء وراحة واطمئنان ...

لقد نعمت بزبدة الحياة فى ليلة يا لها من ليلة ، فليست هى أهلا بعدها لحياة ...

لم يعد « لام سحلول » مكان فى حياتها السابقة التى كانت تحياها من قبل اذ أدت واجبها فيها كل الاداء ، واطمأنت نفسها بما انتهت اليه ، وفرغت منه

ولا مكان « لام سحلول » فى تلك الحياة الجديدة التى يستقبلها ابنها العزيز فى ظل زواجه السعيد

انها لتنطلق الآن سابحة فى الآفاق العلوية ، راضـــية مرضية ، وقد تخلصت من القيود والاثقال !

خائب الدهر

صورة من حياة فئة حسبت نفسها من الخيرة الممتازة . ولكنها لم تعمل فى الحياة ما يحقق هذا الظن ... ربطت نفسها بالماضى ، ولم تســـاير الزمن ، معتقدة ان الماضى هو عالم الخير المحض. وعاشت على الاوهام فى عالم الاحلام ، ففنيت فيه وزالت من الوجود !

ذلك آخر ايامى لا محالة ... وما احسب ان الشمس طالعة غدا ، ولى فى هذه الحياة انفاس

لم يعد قلبى مستطيعا أن يواصل الخفوق ، واذن فأنا من مصيرى العاجل على ثقة لا يتطرق اليها ارتياب

لن يعودنى الطبيب منذ اليوم ، فقدصرفتهعنى ، وطلبت اليه ألا يعود

ويح هذا الطبيب ، من مخادع كذوب ! ... انه ليموه الحقيقة على ، ويكتم ما يعلم من أمرى ، ويتخذ فى تضليله اياى أساليب تستدعى أن أرثى له ، بل انه ليثيرفى نفسىأبلغ السخط والحنق

من يظننى هذا الغر المأفون ؟ لكأنه يظننى طفلا يريد ان يغرر به ، ويسخر منه ؟

وما انتفاعى بذلك الطبيب ، وأنا أعلم من خبيئة أمرىمالا يعلم ألف طبيب وطبيب ؟

لقد وهبنى الله بصيرة مرهفة ، لا يسمو اليها علمالاطباء ، وانى بتلك البصيرةلأستجلى ما دق مناسرار الحياةوالاحياء

يقينى أن بقائى فى الدنيا قليل ، وأن رحيلى عنها وشيك

لا تثريب على اذن فى أن أتخذ من الاهبة مايتخذ الراحل الى غير مآب ... أستصفى ما يتصـــل بى من عمل ، واستدعى اللحاد لأشير عليه بما ارى فى شأن القبر الذى

يحتويني ، ولم أنس أن أوصى بما تكون عليه جنازتى فى طريقها الى ساحة الصمت والسكون

لقد اطمأن قلبى بما دبرت وما أشرت وما أوصيت ، وهأنذا أستقبل الموت فى سكينة واستسلام

حان حينى ... تلك ارادة القدر ، ولا مرد لما يريد ، بيد أن الناس ينكرون هذه الحقيقة الخالدة ، فيزعمون أنى أنا الذى أبلغت نفسى هذه الغاية من التداعى والاضمحلال

أولئك هم يقولون أنى أسرفت فى التشاؤم الاسراف كله، وانى تركت الهواجس والاوهام تغتالنى وتلقى بى الى التهلكة

أحقا أنا كما يزعم الناس ؟

احقا ان هذا التشاؤم كان يهيمن على خطواتى ، فيوجهنى كيفما شاء ، وانه هو علة أخفاقى فى الحياة ، وهو الذى ساقنى أخيرا الى هذا المصير الذى أنا فيه ، أعد مابقى لى من حياتى بالساعات ، بل اللحظات ؟

أحقا أنى من هذا الضرب الذى يخط بيده مصيره ، ويخطو بقدمه الى حتفه ؟

احقا انى اسير هواجس اخلقها فى مخيلتى ، لأعكر بها صفو أيامى ، وانى أتصيد الاوهام فأبعثرها لتتعثر بها خطاى ؟

أحقا أنه كان فى مقدورى أن أمد لنفسى عمرا أطول مدى، وأن اهيىء لى حياة أوفر جدوى ؟

تلك مزاعم الناس ومفترياتهم على ، ولعمرى أنهم لظالمون لى ، وانهم فى هذا الظلم لآثمون !

كيف يتاح لامرىء أن يزيد فى عمره المقسوم له يوما أو بعض يوم ؟ ألسنا طوع أقدار لا نملك منها الفرار ؟ وأين تلك الارادة التى تسمو الى تبديل ما رسمت لنا الاقدار ؟

ما زال الناس لهم ألسنة أطول من عقولهم ، فهم لايفتأون يلقون الكلام جزافا عليه مسحة من برقشة وزخرف ، وهو كالطبل الاجوف الرنان ، فليس فيه من معنى الاكذلك الهواء الذى يخرج من الطبل اذا مزقته ، لا يلبث أن يذهب مع الريح

ما للناس وما لى ؟

فليدعونى لما بى !

ولكن أنى للناس أن يتركونى ، ودأبهم منذ كانوا أن يقحم كل منهم نفسه فى حياة غيره ، فيفسد عليه أمره ، يدعى أنه يفهم من الدقائق والاسرار مالا يفهم سواه ، وانه وحده مالك ناصية الهداية والاصلاح ، وهو لذلك يتطوع باللوم ، ويتبرع بالنصح ، متخذا من هذا كله ذريعة الى استبطان دخائل الناس ، والتغلغل فيما يضمرون من شئون وشجون

لو عرف المرء قدر نفسه ، لاختزن نصائحه لنفسه ، وكف عن التدخل فيما لا يعنيه ... اذن لخلص الناس لانفسهم يدبرون أمورهم بمنجاة من التطفل والتدخل والتأثير ، ولعاشوا فى سكينة وطمأنينة ونعيم

أين هى الوساوس والاوهام التى يزعمون أنها تملك على سبيلى ، وتأخذ بخناقى ؟

انها حقائق ملموسة ، لا يتسرب اليها الشك من قريب

أو بعيد ، حقائق ناطقة لا يجحدها الا مكابر عنيد

تلك هى القهوة أمام عينى ... ذلك المشرب الذى يقوم بناؤه عن كثب من المنزل ، متجلياً للناظر تحت الاضواء بأركانه وأبوابه واشيائه ...

أحقيقة هى القهوة أم وهم يصوغه الخيال ؟

انت تسألنى : وما الصلة بينى وبين القهوة التى هى ماثلة للعيون ؟

لا تعجل بسؤالك على ، فانى مجاهرك بكل ما تريد

ليس من عجب فى أن تكون بينى وبين القهـــوة رابطة وصلة ، فذلك أمر لا تأباه الطبيعة ، وان بدا غير مألوف

ثمة كائنات يرتبط بعضـــها ببعض أوثق ارتباط ...

رب شيئين اتصل أحـــدهما بالآخر ، فكأنهما توأمان متلاصقان ، لا يفترقان فى ابتداء أو انتهاء ... همايزدهران معا ، ثم يضمحلان معا ، فاذا فنى أحدهما فنى الآخر على الاثر ... بينهما وصلة روحية يعقدها القدر ، فاذا هما يجريان فى آن واحد الى غاية واحدة

لا سبيل الى اكتناه الصلة الروحيـــة بين الكائنـــات المترابطة ، فان كنهها محجوب يعز على عقول البشر ، وما أعجز افهامنا عن ان تدرك أسرار الروح ، بل ما أشد قصور الافهام البشرية عن ادراك الكثير من خفايا الطبيعة وسرائر الكون

وماذا يبلغ علمنا بتلك السرائر والخفايا ؟

هذا المخلوق البشرى أجهل مخلوقات الله بما حوله من طبائع الاشياء وحقائق الوجود ، ولكن له لسانا طويلا يعينه

على التبجح والادعاء ، وانه لفخور بهذا اللسان الذى يشقيه ويطيل همه ، ولو انصف هذا المخلوق التاعس لاستأصل لسانه من حلقومــه ، ولعاش أخرس يختزن رأيه وتفكيره فى وليجة نفسه ، فيريح ويستريح ، ويسلم من أعقاب تلك الثرثرة الأرضية التى تجلب عليه الهزؤ والسخرية من جانب السماء . ولكأنى بالكائنات العليا تستمع الى هذيان ذلك الانسان الاحمق ، فتسترسل فى قهقهة تملأ الفضاء من بروق ورعود

أقولها جهرة لا لبس فيها ولا ارتياب ... ثمة رابطة روحية قوية وصلت بينى وبين هذه القهوة التى أسميها توأم نفسى ، وصنو عمرى ، فوحدت ما هو مقسوم لنا من مصير

يطيب لبعض رفقائى أن يعابثونى فيسألونى : اذا أجزنا لك أن تستوثق الصلات بين الكائنات الحية ، وان يتحدمالها من أقدار ، فكيف نجيز لك ما تزعم من الاتصال بين كائنين: حى وغير حى ، بينك وبين القهوة ؟ ... انت انسان والقهوة جماد ، فأين روحها التى تزعم اتصالها بروحك ؟

ما أبين جهل السائلين بأسرار المادة الازلية !

انهم ليقفون عند الظواهر والقشور ، وانهم ليقيســـون الحياة بأقيسة جامدة قاصرة ، لا تلائم ما يحيط بنا من عناصر الكون وجوهر الوجود ... الا ان كل شىء فى هذا العالم حى ، وان اختلفت صور الحياة ، وهل عرفنا نحن حقا ما الحياة ؟ ما كنهها ؟ ما تحديدها ؟ ما تعريفها على الوجـــه

الصحيح ؟ وهل وقفنا على حقيقة الروح التى تعمر الجسد، فتخلع عليه صبغة الحياة ؟ أليس ذلك كله ما برح الى اليوم وراء الغيب المستور تتيه فيه الأوهام ؟

كيف لا يكون كل شيء حيا ، وفى كل شيء نفحة من الله يكمن فيها سره العظيم ؟

انى لزعيم بأن هذه الأشياء التى نسميها الجمادات تنعم بحياة عامرة كما تنعم الكائنات الحية سواء بسواء ، فلكل من تلك الجمادات حياته الحافلة بالأعاجيب من طفولة ساذجة، الى شباب متوثب ، الى شيخوخة متداعية ، الى فناء فى عباب الكون الغامر ... وانى لزعيم بأن لكل من هذه الأشياء اقدارا وتصاريف من هبوط وصعود ، ومن نحوس وسعود ... ولو ارهفنا مشاعرنا لأحسسنا حياة هذه الكائنات من حولنا ، وتأثرها بنا ، وتأثيرها فينا ، ومشاركتها لنا ، وان كان يعوزها ما تميزنا به نحن من المنطق والكلام ، ولعل صمتها وسكونها أفصح من كل منطق وابلغ من كل كلام

لست وحدى صاحب هذا الرأى ، فليس منا الا من يؤمن به فى قلبه ، وان أنكره بلسانه

أناشدك الحق أن تعترف أنت بما تعرف من أمرك

اهمس لى بما فى نفسك : ألم تستشعر يوما رباطا يصل بينك وبين شيء من هذا الذى ندعوه الجماد ؟

اذكر أن كنت ناسيا : ألم تصاحبك طرفة من متاع بينك، او اداة مما تتخذ فى عملك ، او شيء مما تلبسه أو تتزين به من نحو زهرية أو دواة أو رباط رقبة ، فاذا ما أدركها

البلى ، ولم تجد بدا من أن تلقيها عنك ، أو تستبدل بها غيرها ، أحسست فى قرارة نفسك احساس من يودع رفيقا كريما أزمع الرحيل عنه ، ونزعت بك نازعة رقيقة من حسرة وأسف ؟

ذلك القلم الرصاص الذى أصطنعه للكتابة ، فأصاحبه وقتا يقصر أو يطول ، انما هو رفيق عزيز تتصل حياتى بحياته ، وتندمج روحى فى روحه ، فتتخلق هذه الأفكار التى يخطها بدمه على القرطاس ، فاذا هى شيء حى له كيان ... وكلما بريت هذا القلم مرة ، ليهبنى لبابه ، فكأننى أقتطع من حياته ، وأنتقص من عمره ، وما أنا فى هذا بجان عليه ، ولا آثم فى حقه ، فذلك ما هيأته له الأقدار من تدبير ... كلانا يعيش الى حين ، وكلانا يفنى فى ميقات معلوم ... فلهذا القلم من الدنيا ايام مقسومة لا يستطيع أن يستقدم ساعة او يستأخر ، وما أنا فى موقفى منه وصنيعى معه الا يد القدر الخفى تعمل على اسلامه الى مصيره المحتوم

شد ما أنا شيق الى معرفة اليد المجهولة التى وكلت اليها الاقدار أن تدفع بى فى غمرات هـذا العيش ، وأن تقتطع من حياتى جزءا بعـد جزء ، وتنتقص من عمرى شيئا بعد شيء ، حتى تسلمنى الى النهاية التى ليس من بلوغها بد

لا غرو أن أحس لتلك القهوة التى أطل عليها وجـودا وحياة ، وان أستشعر ما بينى وبينها من رباط روحى وثيق

لست أنسى ما تحدث به ابى فى شأن تلك القهوة ، وانا

يومئذ فى بواكير الصبا ، اذ كان يقول لى رزين اللهجة : انك يا بنى ولدت يوم ولدت هذه القهوة ، يوم فتحت أبوابها للرواد ، يوم استقبلت صخب الحياة . . . وانه فى هذا اليوم أقيم مهرجانان فريدان ، أحدهما فى البيت لمولدك ،والآخر فى الشارع لمولد القهوة ، فتواصلت الزينات ، وتعانقت المصابيح ، وتجاوبت أصداء الالحان ، وترنح الشارع كله بنشوة النور والطرب والابتهاج

وهل أنسى ذلك الحادث الذى وقع يوم قضت أمى نحبها وأنا ابن أعوام قصار ؟ لقد أصاب أحد اركان القهوة صدع شديد ، وكاد ينهار على الرواد ، فعجلوا اليه يقيمونه،وكان ذلك أول ما أشعرنى أن ثمة روحا سارية بيننا وبين هذه القهوة ، والا فما بال هذا الركن ينقض يوم ماتت أمى ، كأنما هما على موعد للفناء

كنت أرى أبى يلازم هذه القهوة ، فهـو بالجلوس فيها شديد الولع ، حتى اذاعاد الينا فى البيت،سمعنا منه بعض ما دار فى القهوة من نوادر وأحداث ، يفيض فى الحديث عن جلسائه ، وعن ذلك النادل الذى يترسل فى ارجاء القهوة بألوان الأشربة والطلبات فى همة ونشاط ، فأصغى الى حديث أبى فى شغف وتشوق ، كأنما أنا أصغى الى روائع من القصص والاساطير

وأصبحت على مر الأيام من رواد القهوة ، اسمع وأرى وان لم اخط فيها خطوة ، اذ ألمت بكل ما يدور فيها من شئون ، وما يختلف اليها من ناس ، فلم يكن يعييني أن أتخيلها وانا فى مكانى من البيت ، فأحس بأنى قد اقتعدت

فيها كرسى أبى على حاشية الطريق ، وانى أترشف القهوة أو الشاى ، واجتذب أنفـاس « النارجيلة » من أنبوبها الثعبانى المديد

هكذا عرفت القهوة قبل أن تعرفنى ، وعشت فيها دون أن تطأها قدماى ، فأكننت لها بين الجـوانح أعظم الحب ، واستشعرت لها فى نفسى سارية من الامن والانس والارتياح

ولما فارقت عهد الطفولة ، واستطعت أن أبارح الدار وحدى ، كان من همى أن أستبين القهوة التى ملأت على خيالى ، وجعلت أرقبها هنيهة فى تشوف ، فلم أجد كبير فرق بين ما رأيته منها رأى العين ، وما كنت أرسم لها من صورة فى الخاطر

ولبثت حينا لا علاقة بينى وبين القهوة الا علاقة عاشق يقنع من عشيقته بنظرات يتبادلانها على البعد ، فيناجيها وتناجيه ، ولقد كنت أحس كأن هذا البناء يهش لى ، ويرحب بى ، بل كأنه يعتب على فى احجامى عنه ، وتقصيرى فيما يجب له

وألحقنى أبى باحدى مدارس الحى ، وكانت القهوة فى طريق المدرسة ، فكنت أجوز بها ذهابا وجيئة ، أردد فيها ناظرى ، وأجد لذلك أنسا ومتعة

ويوما وأنا فى طريقى من المدرسة الى البيت ، ألفيت أبى فى القهوة يتخذ مجلسه ، فركضت اليه ، فأجلسنى بجواره يربت كتفى ، وجاء النادل بشاربه المنتفش ، وميدعته البيضاء تكسو صدره ، فما أسرع أن عرفته . وطلب اليه أبى

أن يحضر لى كوبا من شراب الليمون ، فاحتسيته سائغا لم أشرب أطيب منه مذاقا ولا أحلى

وتعودت بعد ذلك ان أختلف الى القهوة ، اشارك ابى بعض جلساته ، فتم التعارف فيها بينى وبين صاحبها ومن يجتمعون الى أبى من الرفاق والانداد

وكانت القهوة ملتقى الصفوة والسراة فى ذلك الحى ، عليها مهابة تحميها من ابتذال الواردين ممن هب ودب ، ولم يكن فى الحى سواها من الاندية ، الا تلك المشارب التى توصف بأنها مشارب بلدية ، يؤمها أخلاط من الناس

توافرت لتلك القهوة حقا أسباب الفخامة ، جوانبها فساح وضوءها ساطع ، وأثاثها فاخر ، وادواتها من نوع رفيع ، وأمامها ساحة رحيبة يصول فيها الهواء ويجول ... فاذا جاء الصيف ، طاب فيها سمر العشى ، فرأيت المناضد قد صفت دون الأبواب على جانب الطريق ، وغصت بها الساحة الرحيبة أو تكاد

يا له من منظر بهيج يتدفق من حيوية ومرح ، حين يتحلق الرواد حول هذه المناضد فى الأماسى ، كأنهم خلايا النحل ، وقد تناثرت فوق رءوسهم المصابيح الوهاجة ، والحاكى يبعث اليهم ألحان الغناء ، وطوائف الباعة يجوسون خلال الصفوف ليعرضوا ألوان السلع ، والمهرجون يبدون ألاعيبهم على دقات الطبول وأنغام الربابات ، والحواة بأعاجيبهم وطرائفهم يسترعون الأنظار ، والسابلة يتقاطرون للتفرج ، فكأن القهوة فى زينتها وزخرفها حفلة عرس لاتنتهى

فى ليلة او بضع ليال ، وانما هى مهرجان يتجدد فى كل ليلة، وتتعدد فيه أفانين المباهج والمسرات

وكانت أسرتنا فى عهد صباى ترتع فى بحبوحة من العيش فهذا أبى يمارس التجارة فى توفيق واقبال ، لا تنبو له همة ، ولا يكل من السعى ، وبذلك استطاعت الأسرة فى هذا الحى أن تبارى كرائم الاسر فى بسطة الجاه ، وان تظفر من الجيرة بالموفور من الاكبار والاعزاز

شرع الحى بعد ذلك يستقبل موجة طارئة من التغيير والتبديل ، فرأيت بعض المنازل المتواضعة المحيطة بالقهوة تسرع اليها يد الهدم ، وما هى الا أن تقوم مكانها أبنية سامقة ، وتقلصت الساحة الرحيبة حيال القهوة ، اذ شيدت فى أرجائها دور جديدة ، وكان المبنى الذى يقوم فوق القهوة قليل الطبقات ، يشغل صاحب القهوة شقة فيه ، فلما تعالت عليه الدور حواليه فقد روعته ، وبدا كأنه قزم هزيل بين العماليق

وأصابت أبى وعكة ألزمته فراشه ، وأوضح له الاطباء أن المرض فى القلب ، ونصحوا له الا يبذل من جهد ، فتخلف عن متجره ، ولم يكن فى مستطاعى ان أخلفه على المتجر ، اذ كنت قد التحقت باحدى الوظائف الحكومية ، فانقطع عن الأسرة رزق كبير ، واضطرت أن تجانب ما ألفت من ترف وان تأخذ بأسباب الاقتصاد فى الانفاق

واشتدت العلة بأبى ، فكان لا يبارح البيت الى القهوة الا فى الحين بعد الحين ، فآثرت ان أرعى فيها مكانه، وحرصت

على أن أشغله ، وأن اعتز به ، حتى أحتفظ لابى بمقعده الوثير

وفوجئت صباح يوم بأنى منقول الى أحد بلدان الصعيد، ولم أجد من يعيننى على الغاء هذا النقل ، فاستجبت له ، وقضيت فى الصعيد بضعة أشهر عانيت فيها أليم العذاب، فأنا هنالك وحيد لا أعرف لى من صاحب ولا خدين ، والبلد قصى معزول عن العالم الصاخب كأنى فيه حبيس ، وكان حنينى الى « القاهرة » يزداد بى يوما بعد يوم ، ولا يبرح مخيلتى ذلك الحى الحبيب الذى نشأت فيه ، وتلك القهوة الأنيسة التى تزينه

وكان يغرينى بالبقاء فى هذا البلد أنى فيه رئيس لاسلطان لاحد على ، وأن عملى فيه سبيل الى رقى سريع ، ولكن ضيقى بالوحدة ، وحنينى الى المدينة ، شوه فى عينى كل هذا الاغراء

وعرفنى فى تلك الفترة عميد أسرة ميسورة فى ذلك البلد، فرشحنى وسطاء الخير من جانبه أن أكون لابنته زوجا ، وأن يشركنى فى أعماله الكبيرة التى تدر عليه وافر المال . فلم أكترث لذلك كله ، وكيف لى أن أقيم فى هذا المنفى الموحش ؟ واذا كنت أوثر الخروج من الوظيفة الحكومية ، لاقتحام الاعمال الحرة ، فماذا يحوجنى الى الناس ، وذلك متجر أبى فى « القاهرة » ينادينى أن أقوم عليه ؟

ويوما تلقيت برقية تنبئنى بأن والدى على شفا خطر ، فتملكنى روع ، وهرعت من فورى الى القطار ، وما كدت أبلغ عتبة البيت حتى علمت أن أبى قد فارق الدنيا منذ

قليل ، فهالتنى الفاجعة ، ولكن مراسم الجنازة واقامة المأتم أرادتنى على ان اتجلد ، وأن أضطلع بالامر كما ينبغى أن يكون

وحانت منى وانا فى غمرة هذا الحادث نظرة الى القهوة، فاذا هى مغلقة ، فتساءلت ، ما سر هذا الاغلاق ؟ فأعلمونى أن تنظيم العاصمة اقتضى شق شارع فى الحى ينتقص جانبا من مبنى القهوة ، وانه قد حان يوم التنفيذ ، فأحسست حيرة تستبد بى ... بالمصاب القهوة فى يوم المصاب بأبى !

وفى غد سمعت صوت المعول ينقض على جانب المبنى ، فكأنما كان يدق رأسى ، وكأنما كان صوته نواحا مع النائحات على فقيد الأسرة العزيز

وأسرع صاحب القهوة اليها يلم شعثها ، ويرم جوانبها ولكنها اصبحت بعد ذلك الترميم والاصلاح كئيبة الشكل، شائهة المنظر ، كأنما هى كسير بترت ساقاه ، فهو يسير متجهم الوجه ، متغضن الجبين ، يتحامل على عكازين من جذوع النخيل !

تعذر على أن أعود الى عملى فى الصعيد ، فكتبت الى الوزارة أرغب اليها فى نقلى الى «القاهرة» ، فلما لم تجب سؤلى قدمت اليها استقالتى ، ايثارا منى للعمل الحر فى متجر أبى

اترانى اخطأت فى هذا الصنيع ؟ لقد لامنى فيه كثير من الرفاق ، وحاول أن يثنينى عنه بعض ذوى القربى . ولكنى آنست الرشد فيما أنا معتزم ، فلم أعبأ بملام ، واصممت أذنى دون من يحاول تثبيط عزمى

لقد آن لى أن أنفذ ما تهفو اليه نفسى من برامج وخطط، أجدد ذكرى أبى فى التجارة ، وأحيا فى الأسرة حياته ، وأقوم فى القهوة مقامه ... لأحتذين مثاله ، فكأنه — بى — حى لم يعصف به عاصف المنون

بيد أنى لم أوفق فى تحقيق تلك الامانى الرطاب ... فالمتجر على درجة من التدهور بالغة ، ولم أملك أن أقيله من عثرته ، وان استنقذه من يد الخسار . . . وكانت الحيلة الاخيرة فى شأنه أن أبيعه لقاء عوض من المـال لا بأس به

ونصح لى الناصحون بالسعى الى استعادة وظيفتى فى الحكومة ، فانتصحت وسعيت ، ولكن المسعى لم يثمر

وقد زاولت أشتاتا من الاعمال ، بغية الاطمئنان الى عمل راتب فيه قرار ، فوقف النحس لى من حيثما اتلفت ، حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

ولم أجد بدا من أن أهادن السعى ، واسكن بعض وقت، قانعا بصبابة من المال اقتضيها كل شهر من حصة فى بيت كانت لامى ، فآلت الى

وهكذا فقدت ما كنت آمله ... الا ذلك الركن الحبيب فى القهوة الانيسة ، ركن أبى من قبل ، فهو المفزع والملاذ ، فيه أقضى جل الوقت ، محتلا ذلك المقعد العظيم الذى فقد على الايام بعض ما كان له من صلابة وقوة ، ومن توقر وجلال ... وكيف لا يصيب التغير هذا المقعد وقد تغير فى القهوة كل شىء ، فهذه « النارجيلة » قد صدىء معدنها الصقيل ، وبلى أنبوبها الطويل ، وذلك النادل قد تقوس

ظهره ، وشاب رأسه وبدت ميدعته على صدره كأنها رقعة فى ثوبه لا نظيفة ولا أنيقة

على أن القهوة ظلت على حالهـا مجمع النخبة من أهل الحى ، أولئك الرواد القدماء ، ولكن معظمهم لم يستعصموا على الكبر ، فاذا هم مضمحلون قد تبدلوا من نشاطهم رزانة، ومن مرحهم وقارا وحشمة ، ومن جاههم خمولا وتخلفا ، ومن ثروتهم قناعة ورضا

وعز على القهوة ان تستجلب جديدا من الرواد ، فقد أصبحت حبيسة محدودة النطاق بين الابنية الرفيعة ، لا تكاد تنالها الابصار

وكنت أحاول فى مجلسى من القهوة أن أسرى عن نفسى ما وسعتنى التسرية ، أترشف الشاى ، واجتذب أنفاس « النارجيلة » وأدفع تلك الافكار السود التى تطوف بى بين الفينة والفينة ، مؤكدا لنفسى أن كل شىء طيب ، وان القناعة كنز لا يفنى ... !

وكثيرا ما كنت أستسلم — على الرغم منى — لما ينتابنى من هواجس ووساوس ، فأحس بقلبى يذوب من لوعة وأسى ... تلك هى أسرتنا العريقـــة المجيدة ، يصيبها التضعضع ، ويخمل ذكرها فى الحى ، وهأنذا أندم على أن أفلتت من يدى تلك الزوجية الطيبة التى عرضت على فى الصعيد ، وعلى أنى أضعت عملى الحكومى الذى كان يكفل لى رقيا على الايام

أما ان أتزوج اليوم فهذا مالا يكون ... وكيف لى بالزواج وأنا أكابد مطالب الحياة ، ولا أجد من فضل المـال ما يقوم بجديد من التكاليف والنفقات ؟

وهذه القهوة التى بقيت لى ... ان حالها ليبلغ من السوء مثل ما أعانيه ، كلانا كئيب يزداد على الزمن من تناقص وانهيار ، ولا يعرف له من قرار

ما أقسى هذه الخواطر التى كانت تزدحم على رأسى وأنا فى القهوة وحيد ، فاذا أقبل أصدقاء القهوة الاوفياء لها ساعة الاصيل ، رأيتهم على شاكلتى يشكون كما أشكو ، وان لم تنبس أفواههم بكلام

أولئك الذين كانوا بالامس يتباهون بالصحة والشباب والاقبال ، لا أجد اليوم منهم الا منهوكا عجلت اليه الشيخوخة ، أو زعزعه المرض ، أو تثاقلت عليه هموم العيش . ليس منهم أحد الا وقد عبثت به خائنة الزمن ، وأحدثت فيه مأتما بعد عرس

كنا جميعا نجلس متقاربين حول المناضد ، نتذاكر أيام الصفو والهناء من حياتنا الخالية ، اذ كانت القهوة تتبرج لقصادها ، وتعج بروادها ، كأنها غانية فى فتنة الشباب وجدة الاهاب

يا لى من هذه الذكريات التى تتوارد على الآن ، وأنا على فراشى مسجى ، أرتقب الحين المقدور

انها ذكريات تأخذ على مسارب الانفاس ، وكأنما هى تنفث سمومها فى مهجتى ، فتكاد تعوق قلبى عن متابعة الخفوق

رويدك أيها القلب الملتاع ...

أمهلنى دقائق حتى أتجرع بضع نقط من دواء ، فيه لك انعاش

ها قد تناولت الدواء ، وان قلبى ليعاود نبضاته فى انتظام ، وانى لاستشعر هدأة وسكينة ، وما أحسبها الا بوادر الراحة الكبرى ، راحة الصمت الى الابد

غدا يطبق الظلام على كيانى وعلى القهوة جميعا

غدا يهبط كلانا فى الهوة السحيقة التى لا مفلت منها لكائن وان تراخت به الايام

لزمت الدار منذ فترة لا أبرحها فى صبح أو مساء ، ولست فى هذا بعابث ، فأنا لاشك مريض ، وأن مرضى ليضطرنى الى هذا الاعتكاف

لقد حرمت نفسى الذهاب الى ركنى الحبيب من القهوة الانيسة ، فانظر ماذا أعانى من وحشة وانقباض ؟!

شد ما هى عصيبة تلك الاوقات التى أقضيها فى الدار وحدى ، أزجى ما بقى لى من ساعات فى هذه الحياة ، واعدها ساعة بعد ساعة

هأنذا أتوارى عن انظار الخلق اجمعين ، وأسدل على عينى ستارا كثيفا يحجب عنى كل شىء فى تلك الدنيا الخداعة الغرور

لا أريد أن تكون لى صلة بمجتمع الناس

لا أريد ان تتناهى الى سمعى تلك الانباء المفزعة التى يتناقلونها فى شأن القهوة ، اذ يقولون أنها على وشك الانتقاض ، وان كنت على الرغم من ذلك أشد ما أكون تشوفا الى سماع هذه الانباء ، كما يتشوف السجين اليائس الى سماع الحكم عليه ، وان كان الحكم بالاعدام

أيتها القهوة العزيزة ... انى لاحبك وأرهبك فى آن

لكأن فيك روحا خفيا يعمل على أن يبيدنى ويدنى من الفناء كيانى

ليس عليك فى ذلك ملام ، فكل شىء فى هذا الكون يحمل رسالته من خير او شر ، ويؤديها بالطوع او بالكره ، ثم يأوى الى غيابة النسيان كأن لم يكن بالامس

لا ، أيتها القهــوة العزيزة ... لا أريد أن أسمع من اخبارك شيئا بعد اليوم ، وكفى ما قاسيته من هذه الاخبار

لقد أصابتنى اول نوبة قلبية يوم علمت نبأ الحجز على متاعك ، وفاء للدين الذى تراكم على كاهلك ، ومنذ ذلك اليوم وأنا طريح فراشى لا أغادر الدار

واليوم أعلم أن موعد البيع صبيحة غد ، وأن المبنى كله سيهدم عما قليل ، ليقوم على أرضه بناء يطاول السحاب جديد

وأحر قلباه ... كيف تتابعت الاحداث على هذا النحو حتى أسلمتنا الى ذلك المصير ؟

هذه القهوة استطاعت أن تغالب ما صادفها من رزايا ومحن ، فاجتازت سنوات الحرب فى صــبر واحتمال ، وسلمت لنا تواتينا بالسلوة والمتعة والايناس ، حتى ظننا أن الدهر قد هادننا فى شأنها ، وانه سيبقى علينا وعليها فما لهذا الامل الذى داعب نفوسنا تقضى عليه تلك الفئــة الناجمة التى اطلقوا عليها لقب : « أغنياء الحرب » ؟!

لقد ظهر بيننا فجأة هؤلاء الاغفال المتبجحون ، فعكروا صفو هذه البيئة الطيبة الهادئة ، وانبعثوا يقلبون الاوضاع ويسلبوننا أعز ما نملك بما توافر لهم من أموال غزار

لكأنهم غزاة واغلون ، يزحموننا على الامكنة الرفيعة فى المجتمع ، فيقصوننا عنها فى سطوة ، ويحتلونها دوننا فى جرأة ، وانهم ليتقدمون الصفوف ليكونوا سادة المجتمع الحديث فى الثروة والجاه والسلطان

وها نحن اولاء ، أبناء المجد التالد والعزة القعساء ، لا نملك ازاءهم الا أن نتنحى لهم عن الطريق ، وكيف ندافعهم وقد بلغ بنا الهزال كل مبلغ ، وأصبحنا معهم فقراء لا نستطيع مكاثرتهم فيما تمتلىء به أيديهم من فضة وذهب !

لقد كنا منذ عهد قريب نشهد هذا الصنف العجيب من أغنياء الحرب ، وهم يضربون فى الأرض ، نافخين أوداجهم من الشبع ، مصعرين خدودهم من الكبرياء ، متفاخرين بالحلل القشيبة والحلى الغالية والسيارات الفارهة ، مزهوين بأنهم ينثرون المال يمنة ويسرة ، كأنهم يمتحون من نبع لا يغيض

وما أسرع أن رأيناهم يتتبعون مواقع الارض فى كل ناحية ، فاذا هم يشيدون عليها الابنية الشــاهقة بأيدى ساحرين ، كأنهم يغرسون فى الارض بذورا لا تلبث أن تكون أشجارا فينانة فى لمح البصر

كان منهم نفر يحدجون القهوة فى مغــداهم ومراحهم بالنظر الشزر ، يستهزئون بها وبمن يؤمها من الرواد ، ويتناقلون عنها وعن روادها ألوانا من النكات والاضاحيك فكنا نسخر منهم فى ترفع وازدراء

ماذا فى القهوة يستوجب هذا الاستنكار ؟

لتكن ضئيلة الرقعة ، فحسبها أنها تتســع لروادها

الكرام المنبت ، ولتكن هزيلة الاضواء ، فانها لأبهج فى عيون روادها من كل ضـــوء ساطع وهاج ، وليكن النـــادل فيها قد تغضن وجهه ، وتهدل شاربه ، وبليت ميدعته ، فانه مازال بقلبه الكبير وروحه الانيس يفيض على الرواد ما يحبون من رضا وصفاء

هذا مقعدى الخيزرانى قد تقوضت أركانه ، ولم يستطع أن يقوم بنفسه ، فأسندته الى الحائط يدعمه ، ولكنه مابرح رفيقى الذى أحس به يبسط لى ذراعيه ، ويفسح لى من جوانبه ، فأطمئن فى جلوسى عليه اطمئنانا لا يتيحه لى سواه من وثير المقاعد

ليت هذا النفر من أغنياء الحرب قد اقتصر على النظر الى القهوة بعين الازراء ، واكتفى بالنكات يصبها عليها وعلى روادها الكرام ، ولكنه أبى الا أن يقضى على القهوة وعلينا فى غير هوادة ولا مرحمة

غدا تباع القهوة استيفاء لما ركبها من دين

غدا يمزق متاعها شر ممزق ... ولن يكون مصـــير المقعد الحبيب الذى صافانى وصافيته زمانا الا أن يذهب طعمة للحريق !

غدا يهوى المعول على مبنى القهوة ، فتنهار جنباته تحت الضربات الثقال ، طاوية معها صفحة من روائع الذكريات

غدا ينسدل الستار على حياة ذلك المكان العزيز

وغدا أيضا يمسك قلبى عن خفوقه ، ليطوى صفحة أيامى فى هذا الوجود !

ياسادة ياكرام

القلب وان كان قاسيا يحن الى المغفرة ، الى العفو عن الخطيئة ، وهو فى ذلك يسمو بعاطفته ، حتى يصبح جديرا باسم ((الانسان))

على مصطبة رحيبة من دار متواضعة ، فى قرية « كفر النعام » جلس الشيخ « صفوان » يصيب فطوره مع صديقه الحميم الشيخ « موهوب » ...

وكان الشيخ « صفوان » فى هذا الصباح يحس بالهم بداخله ، فهو حزين النفس ، مطرق الرأس ، نظراته قلقة لا تعرف لها من هدف ، تراه وقد انبسطت يده الى صحفة الطعام ليتناول منها مضغة يدسها فى فمه ، فكأنك ترى آلة تتحرك دون أن تعى

وبينما هو كذلك ، اذ أقبلت عليه خادمته العجوز « أم الخير » ، وما لبثت أن مالت عليه تلقى فى أذنه كلمات ، فلما سمعها الرجل اهتز فى مجلسه ، وبرقت عيناه ، وتطاول بعنقه يقول جهير الصوت :

ـ ابنتى «حليمة» عادت ؟ ... لا أعرف لى ابنة بهذا الاسم ... اليك عنى يا امرأة ... اغربى عن وجهى والا حطمت عصاى فوق رأسك ..

وانسرحت يده تتلمس العصا حواليه ، فأسرعت المرأة تمضى عنه فى خشية وفزع

ولبث الرجل مأخوذا يطبق عليه صمت ، وقد رجع بمخيلته القهقرى سنوات يعرض من ماضيه تلك الصفحة المخزية النكراء ، صفحة ابنته وقد زلت زلتها الكبرى فألحقت بالاسرة عار الابد ... تفريط فى العرض ، ووراءه حمل أثيم!

كان هذا منذ سنين عشر ، وابنته يومئذ لم تجاوز السادسة عشرة ، فغادرت القرية باثمها الى غير رجعة ، وخلفت له ذكرى مريرة ، طالما شقى بها ولاقى منها الويل والثبور

وأزهرت عين الشيخ « صفوان » ، واذا هو يلتفت الى جليسه الشيخ « موهوب » يقول له متهدج الصوت ، ملوحا بيده :

ـ أى ابنة تلك التى عادت ؟ ان ابنتى ماتت منذ زمان ... لم يعد لها فى الارض وجود !

وحاول الشيخ «موهوب» أن يسكن من روع صديقه ، وأن يرد اليه طمأنينة نفسه ، حتى يستأنف طعامه ، فكان الشيخ « صفوان » يلوك اللقمة فى فمه ولا يكاد يسيغها ، وهو ناكس الرأس ، خافض البصر

ولم يجد الشيخ « موهوب » بدا من أن ينصرف عن المجلس ، تاركا صديقه على مصطبته ، لعل السكينة تراجعه فى خلوته ، فبقى الشيخ « صفوان » وحده طويلا تعبث به الذكريات ، حتى ألفى عينيه تجودان بالدمع

وضرب الرجل يده فى صدره يخرج مصحفه ، وفتحه أمامه يريد أن يقرأ ، فاذا هو شارد النظرات لا يستطيع الى القراءة من سبيل

وتراءت « أم الخير » على مقربة من المصطبة ، وهى تتدانى من الشيخ « صفوان » على تخوف وحذر ، حتى أخذت بقدمه تدلكها فى سكون ، وأحس الرجل وجودها فصاح بها يقول :

ـ اياك أن تحدثينى عنها أى حديث ...

فتشبثت المرأة بعباءته مستعبرة تقول :

ـ رحماك يا سيدى رحماك !

ـ لا أعرف شيئا اسمه الرحمة ...

وبدا الرجل كأنما اكتسى وجهه باللهب ، وأوصاله ترتجف ، فاستأنفت المرأة تقول :

ـ انها فى دارى ترتقب اذنك ، وترجو عفوك ، ولولا خشيتها منك لقدمت عليك ، تعفر وجهها بتراب رجليك

فانحنى الرجل عليها يدفعها بقوة ، وهو يقول :

ـ انصرفى عنى يا امرأة ...

ـ انها تبغى أن تراك قبل أن تموت ... انها فى النزع الاخير !

ـ فلتذهب الى الجحيم ...

ـ لقد جاءتك نادمة تائبة تأمل أن تموت بين ذراعيك

وانطلق الرجل ثائرا كالبركان لا يعرف لخطواته قصدا ولا وجهة ، والهواء يلفحه كأنه أنفاس موقد يتضرم ... وكان يخيل اليه فى أثناء سيره أن هتفات تحيط بسمعه قائلة له :

ـ « حليمة » عادت ... « حليمة » عادت ...

وأن هذه الهتفات تتوافق هى وخفقات قدميه على ايقاع واحد ، وأحس ان تلك الجملة تشيع حواليه ، ويتسع نطاقها دونه ، فسمعها من حوافر الدواب ، ومن حفيف الشجر ، ومن كل ذى حركة او نأمة فى عرض الطريق ...

فاذا مر به أحد من الناس ، فألقى عليه السلام ، أوكلمه فى بعض الامر ، حسبه يردد تلك الجملة التى تحاصره ...

وكذلك انقلبت الدنيا بأسرها أفواها تنهى اليه عودة ابنته « حليمة » ، فهو يسمع النبأ رنينا فى هيكل جسمه، وهو يحسه أصداء تتجاوب بها جوانحه !

وظل الرجل يتخبط فى مسيره على غير هدى ، وفى وجهه علائم قلق واضطراب تثير الاشفاق ، وعن له أن يتوخى القهوة ، عسى أن يسرى عن نفسه بالجلوس فيها بعض ساعة ، فحث خطاه اليها ، كأنه منها على موعد يخشى ان يفوته ، فلما بلغها طلب قدحا من القهوة ، وقصبة من الدخان ، ولكنه لم يجد للقهوة مذاقا طيبا يرضاه ، وكاد دخان القصبة يخنق أنفاسه ، فأنحى على غلام القهوة تأنيبا وملامة ، ورمى اليه بالقدح وبالقصبة فى سخط وحنق ، ونهض من فوره يطلب الفرار

وانتهى به السير الى رأس الترعة ، فاقتعد حافتها يتأمل فى مائها الرقراق ... فاذا هو يذكر حياة ابنته فى القرية ، كيف كانت فى عصر الطفولة ؟ كيف كان يحملها معه الى السوق ؟ كيف كان يجلس اليها ليحكى لها طرائف القصص ؟ كيف كان يلحظ من شأنها أنها غريرة طيبة القلب لا تعرف الدهاء والكيد

ويل للناس من الناس !

لو كانت « حليمة » من أولئك البنات اللواتى يعرفن اللؤم والخبث ، لما استطاع أحد من الاوغاد أن يخدعها وان يريدها على غير ما يجمل بها ان تفعل ، ولكنها وقعت

فريسة الخديعة والمكر ، وهى بريئة النفس ، سليمة النية، مطواع !

انها توشك أن تلفظ النفس الاخير ، وانها لترجع تائبة نادمة تبغى أن تموت بين ذراعى أبيها الحنون ، وانها الآن فى بيت « أم الخير » تنتظر من الاب أن يعطف عليها بنظرة .. بذلك تحدثت « أم الخير » الى سيدها الشيخ« صفوان» لتقنعه بأن ينثنى عن عزمه ، وان يغفر لابنته ماسلف ، ولكن هيهات ! ...

وسلك الرجل طريقه الى بيته ، ليسكن اليه فى ساعة الظهيرة ، بيد أنه ألفى نفسه على غير قصد حيال بيت آخر يعرفه حق المعرفة ... واذا هو بالباب مقيد الخطو لا يستطيع البراح

وأراد أن يقول :

ـ أين أنت يا « أم الخير » ؟

فخانه صوته ، واذا هو يصرخ من أعماق قلبه :

ـ اين أنت يا « حليمة » ؟

وسمع صوتا ضعيفا يجيبه :

ـ أنا هنا يا أبى !

فاقتحم الباب وهو يركض ، ووضح له شبح هزيل على الارض ملقى ، فارتمى عليه يناجيه :

ـ « حليمة » يابنتى ... « حليمة » يا حبيبتى !

واشترك كلاهما فى بكاء وانتحاب ، ثم أخذ الرجل ابنته المحتضرة فى حضنه ، فاستشعرت هدوءا يغمر نفسها الحيرى ، ودبت فى جسمها الحياة من جديد ، فتعلقت بصدر

أبيها كأنما تخشى أن تفقده من بعد ، وظلا معا صامتين يتركان لروحيهما أن تتلاقيا وان تتصافيا فى غير جلبة ولا ضجيج ، وأسبل كلاهما عينيه ، فاستخفى من حوليهما كل شىء ، وانسل بهما الزمن فترة ، يمسح عنهما ما خلفته لهما الايام من خزى وألم ، ويردهما الى عهد نضر كله بشاشة وبهاء

وهمهم الاب يقول :

ـ سنذهب معا الى السوق لننتقى من الحلوى ما تحبين ... هاك الجاموسة فخذى زمامها وقوديها الى حيث تشائين !

فأجابت « حليمة » فى صوت كأنه خطرات النسيم :

ـ السوق ... الحلوى ... الجاموسة !

ثم غشيها الصمت لحظة . وما لبثت أن عادت تهمهم :

ـ هلا رويت لى يا أبى قصة من قصصك المحببة ... ؟

وتراخت اوصال الاب وابنته ، وملكت عينيهما غفوة حالمة ... واذا الرجل يقول :

ـ ... كان ما كان ، يا سادة يا كرام ، لا يحلو الحديث الا بذكر النبى عليه الصلاة والسلام ... كان الشاطر «حسن» يحب « ست الحسن والجمال » ... !

وقبيل مغرب الشمس ، خرجت من بيت « أم الخير » جنازة ضئيلة ، متخذة فى سيرها الى ربوة المقابر طريقا غير مألوف ، حتى لا تتناهبها العيون !

وعاد الشيخ «صفوان» الى داره فى دجوة الليل ، بعد أن نفض يديه من تراب ابنته ، وهو يردد :

ـ سبحان الحى الذى لا يموت

وفى الظهيرة من غد ، نودى لصلاة الجمعة ، فقصد الشيخ «صفوان» مسجد القرية ليؤدى الصلاة مع الناس ، وصعد الخطيب منبر المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم انبرى فى خطبته يحث المؤمنين والمؤمنات على الصون والعفاف ، ويذكر ما أعد الله للمفرطين والمفرطات فى الاعراض من أنكال وجحيم ، وطعام ذى غصة وعذاب اليم ...

وهنا التهبت مسامع الشيخ «صفوان» وهو ينصت للخطيب المتحمس ، والفى نفسه يصيح بأعلى صوته :

ـ ليس لك أيها الرجل أن تتحكم فى مصير الناس.. انك لا تدرى من العاصى ومن المطيع ... الله وحده يعلم السرائر وما تخفى القلوب ...

فأمسك الخطيب عن الكلام يتبين من الصائح ؟ واجتمع الناس على الرجل يسكتونه ، فراح يتابع قوله محتد النبرات :

ـ الناس كلهم منافقون .. لا اريد ان يتكلم عن ابنتى أحد ... انها طاهرة الذيل ، طيبة القلب ... لقد ماتت بين يدى تائبة ..

واختلط منطقه ، وزاغت عيناه ، وتشنجت أوصاله ، فدفعه الناس الى باب المسجد دفعا ، وما ان بلغه حتى خارت قواه ، فسقط على الارض يهذى ، وعند رأسه صديقه الشيخ «موهوب» يروح له وجهه ، ويمسح الزبد الذى تسايل على جوانب فمه ...

ساق من خشب

كيف يشقى وبجانبه من لا يشاطره الشقاء ؟ ان غريزته لتريده على ان يحس غيره بما يحس من آلام ، فتسكن ثائرته ، ويسعد ... بشقائه !

في حى « الحمزاوى » كان يقوم المنزل الصغير المتواضع الذى أمضيت فيه عهد الطفولة والشباب ، وكان قبالة المنزل حانوت لتجليد الكتب ، نشأت أراه فى شكله العتيق عليه غبرة ، وقد كسيت وجهته كلها بأبواب كثيرة النوافذ معتمة الزجاج ، على أن أغلب الواحها الزجاجية قد تحطم فاستبدل به الورق المقوى

وأذكر أنى كنت بادىء بدء ـ وأنا طفل ـ أرهب هذا الحانوت أيما رهبة ، ولا أخاله الا جبا تؤمه العفاريت ... اذ كان ظاهره أقتم عليه سيماء العبوس ، وكان مدخله حالك الظلمة ، لا أتبين فيه الا أشباحا تتراقص فى جيئة وذهوب

بيد أنى سكنت على مر الايام الى مرآه ، وتعرفت من يعمل فيه

هما اثنان : رجل وغلام ...

أما الرجل فهو صاحب الحانوت ، اسمه «محمد عوف» له قامة مديدة ممتلئة ، وصدر عريض مفرطح ، وذراعان مفتولان ، ووجه مستدير مشرب بحمرة ، وشارب فاحم غزير ... على هذه الصفة رأيته أول مرة ، وظللت أراه عليها خلال الفترة التى قضيتها فى الحى معه ، بل لقد كنت أجده يزداد على السنين من فتوة وقوة ، ويتوهج فى عينيه ذلك البريق السحرى الذى يسلطه على الناس ،

فيرهبون سطوته ، ويخشعون لسلطانه

وأما الغلام فاسمه « عبد العزيز » وهو صبى صاحب الحانوت ، يساعده فى عمله ، ويؤدى له مطالبه ، وكان فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، ولكن من يراه فى ضموره وقصر قامته يحسبه لم يبلغ عامه العاشر . وكان متطاول الوجه ، كاسف اللون ، ذاهل العين ، موصول الصمت .. اذا مشى أمامك مشيته الراتبة ما شككت لحظة فى أنه دمية من الخشب تتحرك بلولب ... وقد نشأ هذا الغلام يتيما فاقد الرعاية ، فكفله المعلم « عوف » فى بيته ، وعلمه صناعة التجليد فى حانوته ، والزمه ظله كالآلة الطيعة يحركها كيفما شاء دون عناء

وتم بينى وبين الغلام تعارف ، اذ كان يجلس بعض وقت على دكة خشبية بجانب الحانوت يستريح ، فاذا صادفته كذلك فى أوبتى عصرا من المدرسة ، ذهبت اليه ، فشاركته مجلسه ، وجاذبته القول ، وكنت أسأله عن شأنه فيوجز الجواب

ولما استوثقت الصداقة بينى وبينه ، جعلنا نتهادى مختلف الاشياء ، أشركه فيما أشترى من صنوف الحلوى أو المرطبات ، ويقدم هو الى بعض دفاتر صغيرة يصنعها بنفسه من قصاصات الورق التى تتجمع فى الحانوت من بقايا أعمال التجليد ، وكثيرا ما كان يطبع اسمى بماء الذهب على بعض كتبى المدرسية

وبينما انا خارج من منزلى بكرة يوم التمس الطريق الى المدرسة ، اذ ألفيت « عبد العزيز » فى منصرفه من

الحانوت ، على غير عادته ، وهو ممتقع الوجه ، كليل النظر يكسو عينيه ذبول ... فعجبت من أمره ودنوت منه أسأله :

ـ ماذا كنت تصنع فى الحانوت يا « عبد العزيز » ؟

فأجابنى شارد النظرات ، كأنه فى أعقاب حلم :

ـ لقد قضيت ليلتى فى الحانوت ؟

ـ وحدك ؟

ـ نعم

ـ فى هذا الجب المخوف ؟

ـ نعم .. وبلا نور !

ـ ولم سجنت نفسك هذا السجن الفظيع !

ـ بذلك أمرنى معلمى

ـ ألم تخف ؟

ـ لقد كلفنى أن أقضى الليل ساهرا ففعلت

ـ ولماذا ؟

فأطرق يهمهم :

ـ عاقبنى على اهمال منسوب الى

فحاولت أن استزيده ، فاقتضب الكلام ، كأنه ليس عنده ما يقال ...

وتزايل عنى ما كنت استشعره من فزع لهذا الحانوت ، فقد دخلته أزور صديقى فيه أثناء مغيب معلمه عنه ، وكانت الظلمة لا تنجاب عن أرجائه حتى فى رائعة النهار ، وكنت أتخذ مجلسى قريبا من الباب على مقعد خشبى انظر الى « عبد العزيز » وهو يعمل ، وأتحدث اليه فى الفينة بعد الفينة ، فيبادلنى الحديث فى اختصار واقتصار ، على حين

يرتب الكتب على منضدة التجليد ، ثم ينزع عن كل كتاب غلافه ، ويخيطه على اسلوب فنى اشبه بالنسج على المنوال

وكانت نفسى تهتاج اذا رأيته يعمد الى قص أطراف الكتب بالآلة القاطعة ، وهى ذات شفرتين عريضتين مسنونتين تعملان فى أطراف الكتب ما تعمل المقصلة فى رقاب المجرمين ولشد ما كنت ارهب هذه الآلة واتنكب عن مكانها فى الحانوت

ويوما قلت « لعبد العزيز » :

— الا تخشى على نفسك من هذه الآلة القاطعة ؟

فعبرت فمه ابتسامة ، وأجاب ويده تلاطف حديدها :

— وفيم الخوف ؟ انها صديقتى التى لا تؤذينى

— وماذا يكون الامر اذا انطبق حداها على يد انسان ؟

— لا ريب أنها تقطعها فى الحال

— أحدث شيء من هذا لاحد من العمال ؟

— ربما حدث .. فى النادر !

وجاء يوم عرفت فيه المعلم « محمد عوف » نفسه صاحب الحانوت ، فأغرانى اول الامر بتجليد بعض الكتب المدرسية ، ثم جعل يتولى تجليد ما عندى من كتب روائية وكنت بالقصص مشغوفا أيما شغف ، ولما نضب هذا المعين لم أجد الا الدفاتر والكراسات أكل اليه تجليدها ، والرجل يواصل اغراءه لى ، وكنت لا أستطيع لنفوذ نظراته وخلابة أقواله ان أرد له مطلبا ، أو أعصى له نصحا ...

والفت بعد ذلك الا آنس بالكتاب اذا كان غير مجلد ، وأصبح ذلك هوسا تمكن من نفسى واستحكم ، ومازلت حتى الساعة أشعر بشيء من سلطانه على

ولزام أن أنصف المعلم « عوف » فأشهد له بالنبوغ فى فن التجليد ، اذ كانت له فيه أساليب مبتكرة تدل على شدة حذق وصفاء ذوق ، ولذلك اتصلت معاملتى له ، فلم اتركه الى غيره ، حتى بعد أن اتممت الدراسة ، وخرجت الى غمرات الحياة

وكان مبلغ علمى أن المعلم « عوف » يتخذ له مأوى فى منزل صغير عن كثب من الحانوت ، لا يساكنه فى مأواه الا صبيه « عبد العزيز » ، اذ توفيت زوجته منذ أعوام ، ولم يكن له منها ولا من غيرها عقب ، فعاش فردا مع صبيه لا يكاد يزور قريبا أو يزوره قريب

وطوحت بى ضرورة العمل الى « الاسكندرية » ، فنقلت اليها أسرتى ، ومكثت هنالك زهاء خمس من السنين ، لم أهبط خلالها « القاهرة » مرة

وقدر لى بعد ذلك أن أعود ، فاتخذت فى « القاهرة » مسكنا فى غير الحى الذى شببت فيه ، ولكن سرعان ما خطر لى أن أقصد ذلك الحى القديم ، وأن أزور فيه صديقى المعلم « عوف » وصبيه « عبد العزيز » ، وأن أحمل معى مجموعة من الكتب للتجليد ، وما أن طرقت الحانوت حتى لمحت « عبد العزيز » وحده فيه ، وقد بدت عليه سيماء الرجولة فنبت له شارب ، بيد أنه ظل على حاله ضامر العود ، مهزول الاوصال ، جهم السحنة ، فلما رآنى خطا نحوى خطواته الآلية ، يمد الى يده الصلبة ، وعلى فمه ابتسامة باردة ، فهششت له ، وأقبلت عليه أصافحه ، وصحت به :

— أمازلت فى الحانوت يا « عبد العزيز » ؟

ــ وهل خطر ببالك يا سيدى أن أتركه ؟
ــ حسبتك أصبحت معلما له حانوت وصبيان
ففغر فاه مدهوشا يقول :
ــ انا أصبح صاحب حانوت ؟ انا اترك معلمى ؟
ــ أتظل صبيا طول عمرك ؟
فقبل يده ظهرا وبطنا ، وقال :
ــ الحمد لله على كل حال !
فقلت له وأنا أبعثر نظراتى فى الحانوت :
ــ وأين المعلم « عوف » ؟
فاكتسى وجهه بسحابة كدراء ، وأطرق لايجيب ، فعجبت من أمره ، وقلت أسأل :
ــ ماذا ، لا قدر الله ؟
فرفع « عبد العزيز » رأسه ، وقطرات الدمع تحبو على خديه ، واجابنى مختنق الصوت :
ــ انه مريض يا سيدى
ــ وهل مرضه مميت ؟
ــ كلا ...
ــ اذن فيم بكاؤك ؟
فدنا منى وأخذ بيدى يشد عليها وهو يهمس :
ــ لقد اصبح كسيحا يا سيدى ...
ــ كسيحا ؟ .. وكيف ؟
ــ سقط من « الترام » سقطة بترت ساقيه !
ــ يا للهول !
وأمسكت عن الكلام لحظات ، وأنا أفكر فى شأن هذا الرجل

المنكود ، وفيما يعانيه الآن من ذلة وانكسار ، وقد كان ذلك الجبار الذى يبث الهيبة حوله أينما سار
ورفعت بصرى الى « عبد العزيز » أسأله محزون النبرات :
ــ اما زال يسكن فى منزله القريب من الحانوت ؟
ــ مازال يا سيدى ...
ــ أريد أن أزوره .. هل لك أن ترافقنى ؟
ــ أنا طوع أمرك
وخرجنا من الحانوت ، وتوخينا منزل المعلم « عوف » ، يتقدمنى « عبد العزيز » ليدلنى على الطريق ، فما اجتزنا الباب حتى صعدنا سلما من خشب ، أفضى بنا الى ردهة صغيرة معتمة تنبعث منها رائحة تزكم الانف ، ولم أكد أتخطى عتبة القاعة حتى انتهى الينا أنين كأنه زمزمة الاسد الحبيس ، فألفيتنى أمسك عن السير ، وقد تمشت فى نفسى رهبة ، وملت على مرافقى أهمس :
ــ هو ذلك الذى يتوجع ؟ ...
فأومأ برأسه ، وساقنى الى مخدع معلمه ، فاذا الرجل مستلق على حشية عريضة ، وقد أحاطت به وسائد ، فتقدمت اليه أصافحه وأقول :
ــ الحمد لله على سلامتك يا معلم ..
فلاطف يدى يشكر لى ، وفمه ترتسم عليه ابتسامة كئيبة ، وغمغم خشن الصوت :
ــ الحمد لله .. الحمد لله !
وكانت الحجرة ساطعة الضوء ، فاستطعت أن أرى الرجل

حق الرؤية ، وأن ألاحظ ما طرأ من تغيير عليه ، لقد ضخم جسمانه ، وترهل جلده ، وبدت لحيته كثة مهوشة . ولكنه مع ذلك متورد الوجه ، بارز الصدر ، مفتول الذراعين ، أما عيناه فهما على نحو ما كانتا من قبل ، بل لقد ازدادت مقلتاهما من توقد واضطرام

ولبث الرجل يرحب بى ، ويسألنى عن مغيبى ، ثم انطلق يقص على ما كان من نبأ الحادث الذى أودى بساقيه ، وكان « عبد العزيز » فى أثناء ذلك قد صنع القهوة وجاء بها الى ، ولما فرغ المعلم من حديث الساقين استأنف يشكو ويتذمر ، فيقول :

ـ لقد أصبحت لا أطيق الحياة .. انى فى سجن كريه أمضى ما بقى لى من أيام ... لماذا لم يقض « الترام » على كل القضاء ؟ ...

ورمى الرجل بنظرة من عينيه الى « عبد العزيز » وهو يشير اليه فى عنف ، فرأيت الفتى ينتفض من فزع ، ويحنى رأسه فى خضوع ، فجعل المعلم يقول :

ـ وهذا .. هذا الواقف امامك الذى تعبت فى تربيته وتعليمه حتى صار رجلا يفخر بنفسه وبصنعته ، هذا الذى ظننته ابنا لى يعرف حق أبوتى ، أو قريبا لى يعرف واجب القربى ... لقد انكشفت حقيقته أمامى ، فاذا هو جاحد فضلى عليه ، منكر جميلى له .. أقسم أنه مسرور بما أصابنى ، وانى لاقرأ السرور فى عينيه .. انه يرقبنى وأنا أتنقل من مخدعى أزحف على يدى ، فتمتلىء نفسه شماتة بى ، وكأنى أسمعه يقول : « ازحف على يديك ،

فقد أصبحت بلا ساقين ! » ... ويحك من دنىء يا « عبد العزيز » ... ولكن لماذا لاتتعالى على ، ولك ساقان سليمتان لعلك تفكر فى أن تركلنى بهما ؟ ... تعال افعل ، ولا حرج عليك !.. ألست الآمر الناهى فى منزلى ؟ ألست سجانى ؟ تعال اقذف بى من هذه النافذة ، فقد أصبحت لا أملك عن نفسى دفعا ... وماذا أستطيع وانا مبتور الساقين ؟ انى لاجدك شديد التباهى بنفسك يا محدث النعمة ، وأراك تسير مختالا كأنك تقول لى : « أين أنت ايها الكسيح منى أنا الصحيح ؟ رأسك الى الارض وأنت زاحف . ورأسى الى العلاء وأنا أسير ! » ...

ولبث فمه يتدفق بهذا التأنيب والتقريع ، وأنا فى لجة من الدهشة ، لا أدرى كيف أهدىء روع الرجل وأسرى عنه ، أنظر اليه تارة فأراه كالبركان الثائر يقذف بالحمم ، وأرجع النظر كرة الى « عبد العزيز » فاذا هو كالعود النخر يوشك أن يتهاوى ...

ووقفت أودع المعلم « عوف » وأرجو له سكينة النفس ورخاوة البال ، وما هى الا أن هرولت اغادر هذا السجن الموحش ، وقد بنيت عزمى على ألا أطأ له عتبة من بعد ..

وانقضت أسابيع وأنا اتمثل شبح الرجل الكسيح فى لحيته الشعثاء ونظرته النكراء ووجهه الملتهب ...

وأعجب ما كان من أمرى أنى احسست شعورا دفينا يلح على أن أعاود زيارة الرجل ، وعبثا حاولت اقصاء هذا الشعور عنى ، فأقلتنى سيارة الى الحانوت ، وهنالك تبينت « عبد العزيز » حيال منضدة التجليد يعمل ، وقد رانت

على وجهه صفرة شاحبة ، وبدا كأنه غصن ناحل ذهبت بنضرته جدوبة الخريف . فابتدرته أسأل :

ــ كيف حال المعلم ؟

ــ أسوأ حال

فتبعته الى منزل الرجل أزوره فيه

ولم أحمد هذه الزيارة ، كما كان شأنى فى الزورة الاولى بل لقد خرجت هذه المرة أنعى على نفسى ضعفها فى مطاوعة ذلك الشعور الغامض الذى قادنى الى رؤية هذا الرجل ، والى سماع ما يصبه على الناس أجمعين من حسد وبغض ، وما يخص به صبيه « عبد العزيز » من شــــكاية وزراية واستنكار ، وفيما أنا منصرف عن الرجل ، حانت منى التفاتة الى « عبد العزيز » فألفيته غائم العينين يذرف منهما الدموع الغزار

وعلى الرغم منى كررت زيارتى لهذا الرجل الناقم ، وفى كل مرة أخرج من عنده حانقا على نفسى وعلى العالم كله ، وملء جوانحى تقزز ونفور ، كأنى أخرج من قبر راعتنى فيه جيفة عفنة لا تطاق

وكان « عبد العزيز » على توالى الايام يستبد به الهزال وتجحظ عيناه جحوظا يجعله أقرب الى الشبح المخيف ، وكأنه هيكل عظمى يتحرك لينشر الرعب من حوله على من يراه ...

وفى أخرى زياراتى لصديقى البغيض المعلم « عوف » صادفته يتقلب على فراشه كالملسوع ، وفمه يهدر بلعنات جياشة ، وقد أخذته نوبة شيطانية من الضجيج والعجيج

فامتدت عدواها الى ، وشعرت بالنار تسرى فى اوصالى ، واذا أنا أحس رغبة عارمة فى الصراخ والتدمير ...

وانقلب الرجل ثورا هائجا يعض الوسائد ويمزقهـــا بأسنانه ، ويبعثر قطنها فى أرجاء الحجرة ، فاعترانى خوف شديد ، وهممت أن أهرب من وجه الثائر المهتاج

وسرعان ما سمعت صوتا أبح ، واذا هو « عبد العزيز » يتلوى بجوار الباب ، ووجهه جمرة تتضرم ، ويده تلوح بقوله :

ــ كفى يا معلم .. كفى !

وخرج يقفز ، فقفزت أثره بلا وعى ، وأدركته يجتـــاز باب المنزل كالسهم المارق ، ويمضى صوب الحانوت ...

فتمهلت فى مسيرى أستعيد رباطة جأشى . ولما قاربت الحانوت سمعت من جوفه صرخة مدوية اقشعر لها بدنى وتسمرت قدماى ، فوقفت لحظات لا أملك لنفسى رشدا

على أنى تدانيت من باب الحانوت أتشجع ، وألقيت من خلف الزجاج نظرة ، فلم يبح لى الظلام عن مكنـــون . واستطعت أن أقتحم الباب ، فرأيت على خطوات منى مشهدا ممضا لا أنسى فظاعته ما حييت ، ذلك هو « عبد العزيز » ملقى على الارض بجوار الآلة القاطعة للورق ،والدم ينهمر حواليه ، وساقاه على مقربة منه ، منفصلتان عنه !

فأما ما كان من بعد ، فقد انتهى كل شىء على خير مايمكن أن يكون ...

أسعف « عبد العزيز » بالعلاج ، وعاد بعد أسابيع الى

الحانوت ، يتحامل على مسندين خشبيين ، ليزاول عمله امام منضدة التجليد ، كأن لم يحدث له حادث يذكر !

وقد سكنت ثائرة المعلم « عوف » فلم يعد يبدى من شكاية او تذمر . بل لقد عراه انقلاب ، فأصبح وادع النفس يهش ويبش ، ونشط للعمل ، فترك سجنه فى المنزل ، وخرج الى الدنيا يستقبل الناس ويبادلهم الود ، وقد استبدل بساقيه المبتورتين ساقين أنيقتين من خشب !

رهان

ربما أساء الينا أحد ، فلاندرى ما الذى نحسه نحوه ؟ أهو شعور كره ؟ أم عاطفة اشفاق ؟

« سليم افندى » طالب فى مدرسة « الذكاء المصرى » الثانوية ، عرف بين اخوانه بميله الى الادب العربى ، وجودة أسلوبه فى كتابة موضوعات الانشاء . وكان من بين زملائه تلميذ اسمه « مجدى » لا يفتأ يحسده على مكانته التى نالها ، ويأبى ان يعترف له بها ، وان كان يتظاهر بصداقته وكثيرا ما يجادله فى شئون تافهة ، يتشبث فيها « مجدى » برأيه ، مع وضوح الحق فى جانب رفيقه ، و « سليم » لا تغيب عنه دخيلة زميله ، ولكنه لا يبالى ضغينته ، اذ كان قانعا باخلاص صديقيه الحميمين « حسين » و « على » والاربعة الرفاق يلازم بعضهم بعضا اكثر الوقت فى الفترات يتذاكرون معا فى بيوتهم على التناوب ، لكل بيت يوم .. الفول القريب من المدرسة . فاذا ما اقترب الامتحان الفيتهم يتذاكرون معا فى بيوتهم على التناوب ، لكل بيت يوم . .

ترك « سليم » المدرسة ، يوما من الايام ، متأبطا محفظته وقصد محطة الترام ليركب عائدا الى منزله ، وطال مكثه على غير جدوى ، اذ تأخر الترام عن موعده ، فضجر ومر به بائع الصحف ، فاستوقفه ، وجعل يتصفح مجموعة من الجرائد والمجلات ، وفيما هو يبحث ، عثر على صحيفة لم يكن قد رآها قبلا ، اعجبته لاحتوائها على كثير من النبذ الادبية ، وهى تسمى « راية العرب » فاشتراها . وقدم الترام فركبه ، وقطع الوقت يقرأ ما راقه من الموضوعات

وقد لاحظ ان بعض المقالات مذيل بأسماء بعض الطلبة

وعاد « سليم » الى منزله ، وهو مغتبط بصحيفته ، ودخل حجرته ، وما لبث ان شعر برغبة ملحة تدفعه الى الكتابة ، ولكن فى أى شيء يكتب ؟ لقد اضطربت الموضوعات فى رأسه ، فلم يدر ايها يختار ؟ وطفق يسير فى الغرفة ويداه الى ظهره ، ثم وقف امام النافذة يتأمل جنبـات الطريق ، فاسترعى بصره منظر يصلح أن يكون موضوعا طريفا لمقالته ، فاستل القلم ، ومضى يكتب ... وطالت على هذه الحال جلسته ، لم يغير موضعه ، ولم يرفع بصره عن اوراقه ، حتى استكمل موضوعه . وحينئذ وضع القلم جانبا ، وراح يمسح وجهه بمنديله . ونظر حوله ، فألفى الحجرة موحشة بدأت جحافل الظلمة تحتلها . وعاد الى مراجعة ما كتب ، فافتر ثغره عن ابتسامة رقيقة ..

وبينما هو كذلك ، اذ الباب قد انفرج ، وظهرت «دلوعة» شقيقته الصغرى ... رآها تدخل فى محاذرة وتلصص فاختبأ خلف الستارة ، فوجدها قد انطلقت تجمع بعض الاوراق من مكتبه ، فأضاء الحجرة على الفور ، وخاطبها فى لهجة عنيفة ، قائلا :

ــ الم انبه عليك الا تدخلى حجرتى ، ولا تقربى مكتبى ؟

فأرتج على الفتاة بادىء بدء ، ثم مالبثت ان استعادت شجاعتها ، وقالت :

ــ لقد اتيت لانظف مكتبك !

ــ كذابة !

ــ والله العظيم لقد ...

ــ لاتحلفى بالله كذبا يا « دلوعة » ... انى أعرف لماذا اتيت ... جئت لتسلبى مكتبى أوراقه !

فنكست الصبية رأسها ، وواصل « سليم » حديثه ، قائلا :

ــ تأخذين اوراقى لتلعبى بها .. وهل انسى ما فعلته بكراسة الانشاء ؟

فنظرت اليه فى استكانة وضعف ، وغمغمت :

ــ وماذا فعلت بها ؟!

ــ جعلت من بعض أوراقها لفائف ملأتها باللب والحمص ووزعتها على صويحباتك !

ــ اؤكد لك انى لم ..

ــ قلت لك لا تكذبى ... وأخذت تعبثين بالورق الباقى فقصصته على اشكال عرائسك ..!!

والتفت الى الاوراق التى كانت تجمعها ، ثم قال وهو يعيد ترتيبها :

ــ واليوم وقع اختيارك على مذكرات التاريخ والجغرافيا ما شاء الله ..!

ومد يده ليعرك اذنها ، فاذا هى قد اندفعت تبكى ، وهى تستغفره متذللة ، فهمس :

ــ كم من مرة بكيت واستغفرت !

فصاحت الفتاة وهى تشهق :

ــ ستكون هذه آخر مرة ، والله العظيم !

ومشت اليه ، وتشبثت بصدره ، وهى مازالت تبكى

فمكث « سليم » لحظة صامتا ، ثم شعر بنفسه يحتضنها ويربت ظهرها قائلا :

ـ عفوت عنك ، على شرط الا تعودى الى مثل ما فعلت

ـ لن اعود الى ذلك ابدا !

وخرجت تجرى ..

وتنهد « سليم » وهو يتبعها بنظره ، ثم عاد الى مقالته فقرأها وهو جد مغتبط ، ورأى أنه لم يختر لها عنوانا بعد ، فرجع الى النافذة ، وسرح بصره فى الطريق المغمور بأشعة القمر .. لبث على هذه الحال ساعة ، ثم خالجته نشوة من الفرح مفاجئة . وهرع الى المقالة يكتب فى رأسها : رضيع يتألم !

غادر « سليم » منزله مبكرا فى صباح اليوم التالى ، وقصد من فوره صندوق البريد فأودعه مقالته .. ومن ثم اتخذ طريقه الى مدرسته ، وقضى يومه رخى البال ، وتعرف اصدقاؤه فى وجهه ابتهاجه ، فطفقوا يسألونه : ما الخبر ؟ فراوغهم ، ولم يكاشفهم بحقيقة الامر . ولكنه فى مختتم النهار ، حينما كان خارجا من المدرسة مع صديقه « حسين » ، الفى نفسه مندفعا يسر الى الصديق قوله :

ـ لقد أرسلت اليوم مقالة لجريدة «راية العرب» فمارأيك فى ذلك ؟

ـ فكرة رائعة اهنئك عليها !

ـ اشكرك ..

ـ وما عنوانها ؟

ـ « رضيع يتألم » .. قطعة عاطفية وصفية !

ـ لقد احسنت صنعا باختيار الكتابة فى هذا النوع ، فانك نابغ فيه ..

ـ اتظن ذلك ؟

ـ بل اعتقد .. هل لك ان تطلعنى على مسودة المقالة ؟

ـ سأقرؤها لك ..

وانتبذا ناحية بمعزل عن اعين التلاميذ ، وشرع «سليم» يقرأ لرفيقه المقالة ، وما كاد يتمها حتى صاح «حسين» :

ـ تحفة فنية غالية يا صديقى .. اقسم باللهانني لم اقرأ قطعة فى الصحف الادبية تفوق قطعتك هذه .. اهنئك يا صديقى !

فلمعت عينا « سليم » وقد عقد التأثر لسانه ، وسار الصديقان الى محطة الترام ، ويد احدهما فى يد الآخر ، والتفت « سليم » الى صاحبه وقال له :

ـ الم تر بعد « راية العرب » ؟

ـ كلا !

فنادى « سليم » بائع الصحف ، واشترى منه نسختين من الراية ، فأعطى واحدة لرفيقه وقال له :

ـ صحيفة راقية ذات موضوعات ادبية رائقة !

وجاء الترام ، فتصافح الصديقان ، وصعد فى المركبة « سليم » ملوحا « لحسين » تلويح الوداع

وقضى « سليم » الوقت فى الترام ، وهو مسترسل فى احلام هنيئة ، يبنى لنفسه مجدا عاليا فى عالم الصحافة والادب . وما ان دخل البيت حتى هرع الى مربيته العجوز

وشرع يحتضنها ويقبلها ، ثم همس فى أذنها :

ـ لقد بعثت مقالة الى صحيفة « راية العرب » !

فأصاخت اليه المرأة ، وهى لا تفهم شيئا .. وواصل الفتى حديثه :

ـ انها صحيفة ادبية راقية ، وستظهر مقالتى فى العدد الآتى .. لقد اكد لى « حسين » انها مقالة رائعة !

وانبعث يحدثها عن المقالة والصحيفة وصديقه «حسين» ولما تبين له انها لم تع من قوله كثيرا او قليلا، تركها وانزوى فى حجرته

وفى غده شاعت بين الرفاق فى المدرسة حكاية المقال ، اذ لم يملك « حسين » ان يكتم الخبر . فلما ظهر بينهم « سليم » اقبل عليه الزملاء يستجلونه الامر ، فانطلق يحدثهم عن المقال فى اسهاب . وحضر بعد قليل « مجدى » وجعل يتسمع ما يدور بين الرفاق من الحديث ، فما عرف انه دائر حول مقالة « سليم » حتى ارسل ضحكة سخرية، ختمها بقوله :

ـ ان امثال هذه القطعة الانشائية لن يكون نصيبها الا الاهمال !

فابتسم « سليم » واقترب من « مجدى » ولا طف كتفه وقال :

ـ واذا نشرت مقالتى يا صديقى ، فماذا انت فاعل ؟

فأسرع « مجدى » يقول :

ـ اراهنك على ان مقالتك لن تنشر !

ـ تراهننى على ذلك ؟.. حسنا !

فتوسط « مجدى » الحلقة ، وقال جهير الصوت :

ـ اذا نشرت المقالة ، فسوف ادفع «لسليم» نصفجنيه واذا لم تنشر ، دفع هو هذا المبلغ الى

فصاح « سليم » :

ـ قبلت الرهان !

ودق الناقوس ، فتأهب الاصدقاء لدخول الفصول ، وهم يتبادلون الحديث فى ذلك الرهان العجيب .. !

واخذ « سليم » يترقب ظهور « راية العرب » فى ايام الخميس والاثنين ، اذ كانت الصحيفة تظهر مرتين فى هذين اليومين من الاسبوع ، ولكن لتعس حظه لم يجد اثرا للمقال ..

وانقضت ثلاثة اسابيع ، والقلق يزدحم فى قلبه ، والهم يتكاثر عليه ، وكان « مجدى » يشترى الصحيفة ويأتى بها الى المدرسة ، باسطا اياها امام « سليم » وبقية الرفاق وهو ينادى بأعلى صوته ، محاكيا لهجة بائع الجرائد :

ـ راية العرب ، ومقالة السيد سليم اليوم ... ملحق !

فيعلو الخجل وجه « سليم » ويشيع الكمد فى قسماته، ولكنه كان يظهر التجلد ، ويجارى « مجدى » فى هزله ومجونه !

وفات على الرهان شهر ولم تظهر المقالة ، وكان الرفاق مجتمعين عن كثب من باب المدرسة ، فى ركن اعتادوا الاجتماع فيه . فجاءهم « مجدى » وقال :

ـ صبرت شهرا يا اخوانى ... ومن حقى أن أطالب « سليما » بدفع الرهان !

فأجاب « سليم » بهدوء :

ـ انت محق فى طلبك هذا يا « مجدى » ... وسأعطيك المبلغ غدا ...

ثم التفت الى الجمع ، وقال :

ـ ولننس أيها الاصدقاء خبر هذه المقالة السخيفة التى شغلتنا شهرا بلا فائدة ...

وقال « حسين » :

ـ واذا ظهرت المقالة بعد ذلك ؟

فعاجله « مجدى » بقوله :

ـ لا يهمنى أن تنشر بعد اليوم ... لقد انتظرت شهرا ظهرت فيه الجريدة ثمانى مرات ... حسبى هذا ...!

وتكلم « على » فقال :

ـ فلنرجىء البت فى الامر الى خروج العدد المقبل ، فاذا لم تكن فيه المقالة أجيب « مجدى » الى طلبه !

فوافق الجمع على هـذا المقترح ، وأهملوا ما أبداه « مجدى » من اعتراض ...

وكان اليوم التالى هو يوم الخميس ، موعد ظهور « راية العرب » . فغلت حماسة الرفاق ، وانتظروا بنافد الصبر خروجهم من المدرسة ليشتروا الجريدة ، ويروا لمن من الزميلين كسب الرهان ؟

وخرج الرفاق زمرة واحدة ، ميممين محطة الترام ، وهرع « مجدى » نحو بائع الجرائد ، واشترى منه نسخة من « الراية » وفعل مثله « على » و « حسين » ... وأكب

الثلاثة يتصفحون الجريدة بلهفة . وما هى الا أن صاح « مجدى » :

ـ كسبت الرهان ... كسبت الرهان !

وأخذ يطوح بالجريدة فى يده ، ويطوف بها على الزملاء ، وهو يقول : لا أثر مطلقا لذلك « الرضيع المتألم » أيهـا الاخوان ! ...

وشعر « سليم » كأن خنجرا ينفذ فى صدره ، فوقف صامتا يقضم أظفاره ... وأخذ بعض الرفاق الجريدة من « مجدى » وتناوبوا تصفحها ، فلم يجدوا فيها مقالة الزميل أما « حسين » فكان يستوعب صحائف الجريدة فى تؤدة ، معنيا بكل ما تقع عليه عينه من المقالات والنبذ . وفجأة سمعه الجمع يصيح :

ـ لقد عثرت على المقالة ... المقالة هنا ... !

وجرى نحو « سليم » وبسط الجريدة أمامه ، وأشار الى المقالة الافتتاحية قائلا :

ـ انها مقالتك ... هى بعينها ... خذ واقرأ ...

فتناول « سليم » الجريدة منه ، وانبرى يقرأ المقالة ، وفى لمحة أضاء وجهه ، والتمعت عيناه ، وقفز الى «مجدى» وهو يقول عالى الصوت :

ـ ها هى ذى مقالتى ... هى عينها ... انظر ... انظر ...

فرمقه « مجدى » بنظرة غيظ ودهشة ، وأخذ الجريدة منه ، وراح يفحص عن المقالة ، وأحاط الرفاق بالزميلين المتنافسين ، وقد اشرأبت أعناقهم ... وبعد هنيهة رفع

« مجدى » عينيه عن الجريدة ، ونظر حوله ، ثم قال :

ـ لا أدرى كيف ينتحل شخص لنفسه مقالا ليس مذيلا باسمه ؟!

ثم أدار نظره الى « سليم » وقال :

ـ أنت تدعى أن هذه المقالة لك ... فأين اسمك اذن ؟

فخطف « سليم » الجريدة من « مجدى » وبحث عن اسمه فى عقب المقال ، فلم يجده ، فاختلجت حدقتا عينيه ، وهمهم :

ـ انهم لم ينشروا اسمى !

فقال « حسين » :

ـ هذا غريب جدا ... ولكن لم لا يكون سهوا ؟

فتقدم « مجدى » وقال :

ـ ان نشر المقالة ، خالية من اسم الكاتب ، يفيد أنها من قلم التحرير ... وفضلا عن ذلك فعنوان هذه المقالة ليس العنوان الذى أخبرتنا به ، وهو : رضيع يتألم ... !

فثار « سليم » غاضبا ، وهو يقول :

ـ انهم سرقوها ... سرقوها ، ونسبوها لأنفسهم بلا تورع ... يالهم من أوغاد !

ـ هذا كلام واه لا ينهض به برهان ... أنت تتهم قلم التحرير بالسطو على مقالتك ، لتسوغ موقفك ، أما أنا فأتهمك بالسطو على قلم التحرير ، ونسبة المقال الى نفسك ... !

ـ أنا أسطو على مقالة غيرى ؟... أتجرؤ على اتهامى بذلك ؟

فاتجه « مجدى » الى الرفاق ، وقال يخاطبهم :

ـ نحن هنا أمام أمر واضح يا اخوانى ... فاذا أراد « سليم » أن يثبت أن المقالة له ، فليقم على ذلك البرهان !

فنظر الرفاق الى « سليم » فصاح :

ـ تعالوا معى الى المنزل ... فأريكم المسودة !

فغمغم « مجدى » :

ـ نذهب الى المنزل لنرى المسودة !؟

ـ وما المانع ؟!

ـ لا شىء ... لا شىء ... هيا !

وركب الزمرة الترام ، ووصلوا الى المنزل ، وقادهم « سليم » الى حجرته ، وقصد على الفور مكتبه ، ومد يده فى المكان الذى وضع فيه مقالته ، فلم يهتد اليها ، فأعاد البحث وهو يمعن ويتفحص ، فلم يجد شيئا ... فعجب أشد العجب ، وانطلق يفتش فى كل موضع يصح أن يضع فيه المقالة التائهة ، فذهبت جهوده عبثا . وكان قد تصبب جبينه عرقا من الاعياء ، واكفهر وجهه من الحيرة ... وترك الحجرة ذاهبا الى الخادم العجوز ، فألقى عليها بضعة أسئلة فى عجلة واضطراب ، فعلم منها أن أخته « دلوعة » دخلت حجرته فى أثناء غيابه ، وجمعت منها رزمة من الاوراق . فجرى على الفور الى غرفة أخته ، واندفع يبحث فيها ويجد فى البحث ، فكان نصيبه هذه المرة أيضا الاخفاق فرجع يسأل الخادم : أين أخته ؟ فأجابته بأنها ذهبت الى الخيالة(1) مع عمته ، فراح يضرب الارض بقدمه ، ويلوح بيده مهددا ، ويقول :

---

(1) السينما

— سترى ! ... سترى ! ...

وأقبل على أصدقائه ، فأخبرهم بأن أخته قد دخلت حجرته فى غيبته ، وعبثت بأوراقه ، وكان المقال فيما عبثت به ... فأطلق « مجدى » قهقهة عالية وقال :

— ان أعذارك يا سيد سليم تدعو الى العجب ... أجئت بنا الى هنا لتسمعنا هذا الكلام ؟!

والتفت الى الجمع ، وقال :

— الى منصرف أيها الاخوان ... والى اللقاء فى المدرسة يوم السبت ... !

وهم بالخروج ، فاستوقفه « سليم » وقال له :

— عندى برهان آخر ... وأرجو الا يخيب !

فوقف « مجدى » متبرما يقول :

— وما هو ؟

— ان نذهب جميعا الى ادارة « راية العرب » لأثبت لكم ان المقالة بقلمى ، وليكن ذلك غدا ...

فأجاب « مجدى » فى شىء من الاهمال :

— لا بأس ... اذا كان هذا يرضيك !

— اذن فلقاؤنا فى مطعم الفول الذى تعودنا الافطار فيه قريبا من المدرسة ... وليكن موعدنا التاسعة صباحا ... !

□

فى صبيحة الجمعة ، اجتمع الرفاق فى مطعم الفول ، وبعد أن تناولوا فطورهم قاموا قاصدين ادارة « راية العرب » وكان الجمع هذه المرة منقسما حزبين ، الاول لمناصرة « سليم » والآخر لمشايعة « مجدى » ... وكان كل من

الحزبين يسير على حدة : حزب « مجدى » فى المقدمة ، يصحبه اللغط العالى والضحك المتتابع ، يتلوه حزب « سليم » بهدوئه وتهامسه ...

واخيرا وصلوا الى ادارة «الراية» ، وكانت دارا متواضعة ذات طبقتين ، لا تمتاز عن دور الازقة الا بلوح مكتوب فيه اسم الجريدة ، معلق على جدار الدار ، لم تدع له الشمس نضارته ...

وصادفوا الباب مفتوحا ، فدخلوا ولما لم يجدوا أحدا فى صحن الدار ، وقفوا متحيرين ، فتقدم « مجدى » نحو السلم الواصل الى الطبقة العليا ، وجعل يصفق ، ثم رفع صوته قائلا :

— يا أهل الدار ... الا يوجد أحد هنا ؟

فسمعوا صوت خطوات ، ظهر على أثرها غلام على أعلى السلم ، سألهم قائلا :

— من حضرتكم ؟

فأجاب « مجدى » :

— وفد من الطلبة

— وماذا تريدون ؟

— مقابلة رئيس التحرير فى أمر مهم !

— انتظروا قليلا ...

فوقفوا ينتظرون . ولما طالت غيبة الغلام ، ظلوا يروحون ويجيئون ، دفعا لسأم الانتظار ، فاتضح لهم أن الطبقة الاولى ليست مسكونة ، وكانوا يسمعون من الطبقة العليا رجلا غير واضح الصوت ، فى نبراته ما يدل على التوبيخ

والتهديد . ثم تبع ذلك حركات مصحوبة بمواء قط ، فأخذ الرفاق يلتفت بعضهم الى بعض ، ويبتسمون .

وبعد يأس ظهر الغلام ثانيا على السلم ، وطلب منهم أن يصعدوا ، فارتقوا الدرج مسرعين ، ووجدوا أنفسهم فى ردهة صغيرة ليس فيها من الاثاث الا بضعة كراسى قديمة منثورة حولها قصاصات من ورق الجرائد . وقادهم الغلام الى غرفة صاحب الجريدة ورئيس تحريرها ، فاذا هى غرفة رخيصة الاثاث ، قائم فى أحد أركانها مكتب رياسة التحرير ... وما كاد الجمع يتوسط الغرفة ، حتى رفع « رئيس التحرير » رأسه عن أوراقه ، وخطا نحوهم مرحبا ثم التفت الى الغلام ، وقال له :

ـ اذهب وأعد القهوة على عجل ... وادع لى « خليل افندى » فى الحال

ولم تمض لحظة ، حتى صاح رئيس التحرير :

ـ يا « خليل افندى » ... يا بليد افندى ... يا حضرة الغبى ... ما هذا التأخير ؟!

ثم وجه حديثه الى الطلبة قائلا :

ـ لا مؤاخذة يا حضرات الافندية ... ان هذا الرجل لا يشتغل الا اذا طرقت الشتائم سمعه . مضت الآن ساعة وانا انتظر مقالته ...

ثم استأنف ينادى « خليل أفندى » ناعتا اياه بمختلف النعوت المرذولة ...

وبعد فترة ظهر « خليل أفندى » على عتبة الباب ، وقطه يتمسح بين رجليه ، وكان رجلا محطما ، زرى الهيئة ،

يحمل مجموعة من الاوراق تهتز فى يده بلا انقطاع ، ووجهه محتقن بزرقة دكناء ، يزدحم بالتجاعيد البعيدة الغور ، وعيناه محمرتان بلا أهداب . وكان يسير بخطا متثاقلة . وبين فترة وأخرى يضطرب كتفاه بحركة عصبية ظاهرة

ولما اقترب من المكتب ، ناول رئيس التحرير أوراقه ، ووقف جانبا يهز كتفيه ، وأخذ رئيس التحرير المقالة ، وانشأ يتصفحها بنظرات سراع . ثم رمق « خليل أفندى » بنظرة شزراء ، ومزق الأوراق ، ورماها فى وجهه قائلا :

ـ مقالة اليوم رديئة جدا ... لا أقبل أن أنشر فى جريدتى امثال هذه السخائف ... لقد كانت افتتاحية العدد الاخير أحسن مقالة كتبتها فى حياتك !

وما بلغ هذا القول أسماع « سليم » حتى اختلجت أعضاؤه ... واستكمل « رئيس التحرير » حديثه مع المحرر قائلا :

ـ يجب أن تفهم أن دار جريدتى ليست مأوى للعجزة ولا مدمنى الخمر ... هيا ... تفضل ... !

فلم يبد اى تأثر على وجــه الرجل ، وبقى كتفاه على حالهما تهتزان ... وانحنى على الارض ، يجمع قصاصة مقالته فى تبلد ، ثم خرج وهو يسير بخطواته المتثاقلة ، وقطه بين رجليه يتمسح فيه ويموء !

وكانت نظرات «سليم » فى أثناء ذلك لا تفارق وجــه المحرر ، ولم يكن يدرى على التحقيق ما الذى يحسه نحوه فى هذه اللحظة ؟ أهو شعور كره ؟ أم هى عاطفة اشفاق ؟! ووجد نفسه يقف بغتة ، ويتهيأ للكلام ... وظل كذلك

وقتا ، وهو يحاول أن ينبس ، فشخصت اليه الابصار ، وجعل صديقه « حسين » يشجعه ويغريه، ولكن بلا جدوى وجلس « سليم » وقد تضرج وجهه ، وتفصد العرق من جبينه

والتفت « رئيس التحرير » الى الجمع ، وقال :

ـ لقد أراد الأفندى أن يتكلم ، ولكنه لأمر ما فضل السكوت ... ألا أستطيع أن أعلم أى خدمة تريدون أن أقدمها لكم ؟

فوقف « مجدى » وقفة الخطيب ، وتكلم بصوت جهورى طليق :

ـ سيدى رئيس التحرير ... نحن وفد من طلبة المدارس الثانوية ، جئنا نعرض شكوانا من تشعب البرامج الجديدة ، وازدحامها بالمواد ، مع ضيق الوقت وقلة المؤلفات ...

فنظر الرفاق بعضهم الى بعض مذهوشين ، ولما سمع « سليم » قول زميله « مجدى » غلى الدم فى عروقه ، وانقضى وقت وهو يحمل نفسه على الكلام ، ثم وقف يمسك بمقعد أمامه ، ويستند اليه ، فتطلع اليه « حسين » محمسا ، فاندفع فى خطابة مسهبة ، فاذا به يشرح لرئيس التحرير ـ بمنطق مهوش ـ صعوبة المواد وقلة الأكفاء من المعلمين الجدد الذين كلفوا تدريس هذه المواد ...

وكان يتكلم محتدا مهددا ، فكأنه يسب ويصخب ، ثم بدأ يتلعثم ، واشتد احتقان وجهه ، وتوالى ارتجاف أعضائه ولما رأى « حسين » ما وصلت اليه حالة صديقه ،

جذبه من سترته ، راغبا اليه فى السكوت ... فأمسك « سليم » على الفور عن متابعة الكلام ، وجلس على مقعده وهو يجفف عرقه ، ويروح وجهه !

وقام « مجدى » والغبطة تشيع فى وجهه ، وقال لرئيس التحرير :

ـ الآن يمكننا أن نستأذن يا أستاذ ، ولا تؤاخذنا فيما أضعناه من وقتك الثمين الذى عرضنا فيه مسألتنا ... نحن شاكرون لك حفاوتك بنا أجزل الشكر ...

وتقدم من « رئيس التحرير » فصافحه ، وما لبث أن مشى الى الباب ، فحذا حذوه الزملاء ...

وما أن أقلهم الشارع ، حتى انفجر « مجدى » ضاحكا وهو يقول :

ـ ما رأيكم أيها السادة فى هذه المهزلة ؟ حقا انها لمهزلة لم يسمح بمثلها الزمان قط !

واقترب « سليم » من « مجدى » ، وأخرج من جيبه خمسين قرشا ، ثم ناول زميله اياها ، وهو يقول فى صوت أجش مضطرب :

ـ لقد كسبت الرهان يا « مجدى » ، وها هوذا فى يدك لم ينقص ... فأهنئك !

وترك الرفقة المكان ، عدا « سليم » و « حسين » فقد مكثا واقفين حيث هما لا يتحركان . والتفت « حسين » الى صديقه ، وقال :

ـ حقا لم أستطع أن أفهم شيئا مما جرى ... لماذا لم تتكلم فى الموضوع الذى جئنا من أجله ؟... أو لماذا

لم تطلب الى أن أفعل ذلك نائبا عنك ؟

فأخذ « سليم » يد صديقه فى يده ، وشد عليها ، وهو يقول :

— أو كنت تظن أنى أناقش ذلك المحرر الحساب ؟ ماذا كنت تريد منى أن أصنع برجل محطم مهدم كهذا الرجل

وصمت كلاهما بعض الوقت

واندفع « سليم » بغتة ينشج ، مرتميا على صدر صديقه كما ينشج الطفل الصغير !

حنين

هذه الارض التى عاش عليها ، جشمته الجهد والمشقة ، ولكنه لا يبغى بها بديلا ... فان «للارض» نداء يملأ السمع ، ويشغف القلب ... انها تنادى صاحبها ، فيلبى نداءها على الرغم من كل شىء !

كان « السيد افندى كساب » ناظرا لضيعة الشياخات ولد فيها من أب فلاح ونشأ فى الحقل منذ نعومة أظفاره ، لا يعرف فى الدنيا الا مهنة الفلاحة ، وقد بدأ حياته رئيسا للزراع ، وأظهر براعة فائقة ونشاطا فى العمل الذى وكل اليه ، فرقى الى وظيفة خازن ، ثم الى معاون ، فناظر . وهذا أقصى ما يطمح اليه فلاح . وكان أمينا فطنا ، له حافظة من خوارق الطبيعة ، فاستطاع أن يدبر شئون الضيعة كأمهر متعلم . ظل طول حياته فلاحا قلبا وقالبا. حسبك أن تجالسه برهة تصغى الى رنين صوته الممتلىء وتنظر الى عينيه البراقتين ليتراءى لك الريف بأسره ، الريف العظيم ، بشمسه الوهاجة ، وظلاله الوارفة ، بهوائه اللافح ، ونسيمه الوديع ، بغدرانه الهادئة ، وسواقيه النواحة ، بخوار بهائمه ، وأغانى فلاحيه .. وكانت له دار متواضعة ليست أكثر اتساعا ولا أرفع شأنا من دور الفلاحين ، سكنها أبوه من قبل ، ونشأ هو فيها وترعرع ، وشب فيها أولاده ، فلم يشأ أن يغيرها ، وعاش فيها كأنه فى قصر رحب

وكان يتقاضى مرتبا لا يزيد على خمسة جنيهات ، فما كان أعظمه من مرتب ! فى أى شىء يصرفه ؟ كل شىء عنده : الجاموسة ترتع لا تكلفه من شىء ، والطيور تضيق بها الدار ، وحديقته الصغيرة التى بجوار الترعة تمده بكل

ما يطلب من نبات طيب لذيذ . وقد مات بعض أطفاله ، ولحقت بهم زوجته ، فلم يتغير طبعه ، ولم تهن عزيمته . فهو رجل البشر والعمل . وهذه الأرض المتسعة العظيمة كان ينظر اليها كأنها أرضه ، وهذه الماشية التى تملأ الحظائر، وتغطى المراعى ، كان يعدها ملك يده ، بل انه ليضمر لها حب الآباء للأبناء ! كان يمضى اليوم كله متنقلا فى الحقل يراقب الفلاحين وهم يحرثون ويزرعون ، وربما تناول المحراث من أحدهم وجعل يحرث فى اهتمام ، وعينه تلمع ، وصدره يعلو ويهبط . أو يمسك بالفأس يضرب بها الأرض فى قوة وعزم ، ثم يرفع رأسه ويتلفت حوله وهو يقول :

ـ ماذا رأيتم يا أولاد ؟ لقد كانت أرضا صلبة ، ولكنها وجدت من هو أصلب منها ! ..

ثم يبادل الفلاحين النكات المرحة ، ويندفع مقهقها فى سذاجة الاطفال . أما اذا رأى تهاونا من أحد فانه ينقلب جبارا ينشر الرعب فى القلوب ، وكيف يقبل تهاونا فى العمل ، والعمل روحه الذى يستمد منه الحياة ؟

واذا ما حان وقت الغداء جاءوا له بالخبز الرحراح(١) والبصل وخثارة الجبن(٢) أسوة بجمهور الفلاحين، فيجلس معهم فى حلقة واحدة يأكل ويتحدث كأنه فرد منهم . ولايكاد الطعام ينتهى حتى يقوم « كساب افندى »منتصبا يصرخ بأعلى صوته قائلا :

(١) المرحرح (٢) المش

ـ هيا الى العمل يا أولاد !

ويستأنف الفلاحون شغلهم ، يعملون عمل الجبابرة ، وصوت الرجل يدوى بينهم كأنه الرعد

وعند الغروب يعود « كساب افندى » الى الضيعة ووجهه يفيض بشرا ورضا ، يجفف عرقه المتصبب من جبينه بكم ردائه ، ويذهب من فوره الى حظيرة المواشى . هناك يجد البهائم متراصة أمام معالفها ورءوسها محنية تأكل فى شره ، لا تسمع منها غير جرش وقضم وأنفاس ترددها بين الحين والحين . يدخل الرجل فاذا برءوس المواشى قد ارتفعت عن المعالف ، وجعلت تنظر اليه بعيون مشرقة مرحبة وهى ما زالت تلوك فى فمها ما بقى فيه من العلف ، وتمسح بألسنتها أنوفها المصقولة فتزيدها التماعا ، كأنها تريد أن تظهر أمامه بالمظهر اللائق به . وبغتة يدوى صوت أحدها فى صراخ مسترسل ، وهو ناشر أذنيه فى اهتمام ، ويحد بصره فى الرجل . ولا تمضى لحظة حتى تتجاوب الحظيرة كلها بأصوات هذه البهائم الساذجة الطيبة القلب ، وقد اندفعت تتصايح فى تحمس شديد ، يحاول كل منها أن يظهر على رفقته ، ويكسب دونها عطف مولاه .. ويصيح « كساب افندى » بصوته الجهورى :

ـ ما هذه الضوضاء ؟!

فتسكت البهائم على الأثر ، الا حمارا لم يكن بعد قد أكمل مقطوعته فى الترحيب ، فيرميه « كساب » بنظرة حادة وهو يقول :

ـ حقا انك حمار !

ويعيد الحمار رأسه الى المعلف وهو يهر مغمغما ، ويمر « كساب افندى » بالبهائم واحدا واحدا ، وهو يلاطف ظهر هــذا ويداعب رأس ذلك . ويماجن آخر بنكتة لا يفهمها الا هو ورعيته .. يوزع عطفه بالسوية بينها ، لا يخص أحدا منها بامتياز . واذا أحس أنه زاد فى ملاطفته لأحدها أسرع مبتعدا عنه وهو يختلس النظر الى البقية ، خشية أن يكون قد أثار فيها شيئا من الغيرة !

واذا ما عاد الى داره هوى على المصطبة منهوك القوى ، وهو مبتسم الثغر . وتأتى له بالطعام « أم الهنا » مربيته ومربية أولاده ، خادمته العجوز الوحيــــدة . وينطلق « كساب أفندى » يقص عليها فى اسهاب ما فعله فى يومه ، ويستفتيها فى منازعاته مع الفلاحين ، ويصغى لقضائها فى رضا وقبول . وبعد أن ينتهى من طعامه يقصد الى الفرن فيعتليه متمددا ، ويستغرق برهة فى تفكير عميق ، يعرض فيه بعض مناظر من ماضى حياته ، وتتراءى له الدار وهى تزخر بأطفاله وتتجاوب بصيحاتهم ، ثم يراهم وقد كبروا حتى صارت البنات عرائس . ثم كيف تزوجن واستقررن فى ديار أزواجهن ، وكيف غدا ابنه الوحيد « عبد الغنى » طبيبا نابها كبير الاسم ، يعيش فى قصره المنيف «بالقاهرة» ثم كيف بقى هو و « أم الهنا » وحيدين فى هذه الدار .. ويسمع صوتها وهى جالسة على الارض بالقرب من رأسه، فيطلب منها أن تقص عليه طرائف من قصص طفولته ، وتبدأ المرأة تحكى ، و « كساب » يصغى ، والابتسامة دائما تتألق على وجهه ، يستقبل بها أحلامه العذبة

غير أن الدنيا تنكرت « لكساب » فجأة ، فحل به مرض عضال ، فنقله ولده الى « القاهرة » وأسكنه معه ، وأحاطه بعنايته ورعايته حتى أبل . وعاش « كساب » فى كنف ولده مكرما معزز الجانب مغمورا بمناعم الحياة . ولكنه ظل دائما كما كان ، رجل الريف الصميم بجلبابه وعباءته . ولم يعرف من « القاهرة » كلها الا بعض المساجد وأضرحة أهل البيت يذهب اليها ليتعبد . وكذلك قهوة « الحاج ابراهيم » القريبة من مسكنه حيث يقضى الوقت فى ركن منعزل يدخن الطباق فى القصبة(1) ، ويستسلم لأحلام هادئة

دخل « كساب » يوما القهوة ، وكان ملتحفا عباءته القديمة يتقى بها هجمات الرياح الباردة . وقصد الى ركنه المألوف ، فلمحه صبى القهوة ، واتى له على الفور بالقصبة وبالقهوة ، ووضعهما أمامه بعناية كبيرة ، وأمسك « كساب افندى » بالقصبة وأدنى مبسمها من فمه فى حركة آلية ، وأخذ يدخن وعيناه تنظران نظرا تائها

وسمع صوت « الحاج ابراهيم » صاحب القهوة وهو يتحدث الى نفسه . وبعد قليــــل ظهر رأسه الأشيب بلحيته المهندمة ، وأخذ يدور فى المكان بعينيــه الكابيتى اللمعة . وما أن وقع بصره على « كساب » حتى أشرق وجهه بابتسامة خفيفة ، وخرج من مخبئه يسير فى تباطؤ كأنه يمشى على أرض ملساء يخشى أن ينزلق . وأقبل عليه وحياه مرحبا به ، فرد عليه « كساب » التحيــــة فاتر

(1) نوع من النارجيلة يستعمل فى القهوات البلدية ، ويعرف بالجوزة

اللهجة ، وتناول الرجل كرسيا ، وجلس عليه بجوار صديقه . وبعد أن تمخط وبصق ، التفت اليه وقال وهو يحدق فيه :

ـ كفى الله الشر ! مالك ؟

فرفع « كساب افندى » حاجبه الأيمن ثم خفضه ، وجذب نفسا طويلا من القصبة ، ونفخ دخانها على مهل .. وأخيرا قال :

ـ أنا متضايق ! ..

ـ لماذا ؟

ـ متضايق والسلام !

وجذب نفسا آخر ، والتفت الى « الحاج ابراهيم » ، وضغط يده قائلا :

ـ مرت على الآن أربع ليال و « البنهاوى » يتراءى لى فى المنام !

فهمهم « الحاج ابراهيم » وقال :

ـ البنهاوى ؟!

واتسعت عينا « كساب افندى » وانبعث من حدقتيهما بريق قوى ، وامتلأ صوته بحيوية جديدة ، وهو يقول :

ـ أجل « البنهاوى » يا « حاج ابراهيم » ! لقد تركته عجلا صغيرا ما زال شعر الطفولة عالقا بظهره . وكنت أمنى نفسى أن يشب فى كنفى

ونكس « كساب » رأسه ، ولزم الصمت برهة ، ثم رفعه وقال فى صوت أشبه بالهمس كأنه يناجى نفسه :

ـ أجل « البنهاوى » ... « البنهاوى » الذى حضرت

بنفسى ولادته . أتصدق ؟! لقد قضيت الساعات وأنا فى الزريبة أعنى بأمه . وكان الجو باردا والمطر ينهمر ، ثم تلقيته بيدى : تلقيته قطعة حمراء ملساء كالحرير ، ونظرت اليه فوجدته يحدق فى بعينيه البراقتين اللتين تشبهان فصوص الماس .. هذا هو « البنهاوى » الذى كنت أحضر أوقات رضاعه ، وأهيىء له مرقده ، وأقضى وقتا هنيئا أراقبه وهو يقفز فى صحن الدار قفزاته المضحكة ..

ومرت فترة صمت ، ثم عاد « كساب » الى الكلام فقال :

ـ لقد كنت سعيدا فى بلدتى ، فلماذا أتوا بى الى هنا ؟ طالما جاءنى ابنى هناك ، وألح على أن أعتزل العمل ، وأن أسكن معه فى «مصر» حيث الراحة والهناء ، فهل سمعنى أتألم من عملى أو أشكو من حياتى ؟ كان يعيب على أن أبقى فى هذه الوظيفة ، التى كان ينعتها بالوضيعة ، وأن أمد يدى لآخذ مرتبا لا يصح له أن يعطيه سائق سيارته . يا لانكار الجميل ! أنسى أننى بهذا المرتب الوضيع استطعت أن أنفق عليه حتى وصل الى هذا المنصب الذى يحسد عليه ؟! ..

ونكس « كساب افندى » رأسه فى استسلام ، وجعل ينظر الى الارض والحزن باد عليه ، وغمغم قائلا :

ـ ولكن المرض ، المرض هو الذى غلبنى على أمرى ، هو الذى هزمنى وحطمنى . يالله ! لم أكن أعرف المرض فى حياتى ! سبعون عاما قضيتها وأنا أهزأ بهذا الدعى الثقيل حتى شعرت به يهاجمنى على حين غرة ، وجاهدت

ما استطعت أن أجاهد لأتخلص من وطأته ، ولكن لم تجد محاولتى شيئا . لقد كنت أحس به يأكل من لحمى ، ويشرب من دمى ، وينـــال من قوتى ، حتى أيقنت أنى هالك . وحضر ابنى فوجدنى أكاد ألفظ نفسى الاخير ، فحتم نقلى الى « مصر » ، فلم أعارض . لقــد كنت فى ذلك الحين كالطفل الصغير المسلوب الارادة . وحملونى الى المحطة والناس من حولى يودعوننى ، ويطلبون لى الشـــفاء .. وكنت التفت حولى فى مشقة أملأ عينى من منظر الحقول .. وسمعت بغتة خوارا من بعيد ، فشعرت كأن سكينا تحز فى قلبى . أهو خوار « البنهاوى » يهتف بى ويسأل عنى ؟! ومسحت دمعتى بكفى ..

... وفتحت عينى يوما ، فوجدت نفسى على سرير فى حجرة فخمة ، وبجانب رأسى امرأة تلبس البياض كأنها عروس كبيرة من عرائس الحلوى فى موالد الاولياء .. ومرت الايام ، واستطعت ان أنهض من فراشى ، وجاء ابنى يهنئنى ويقبلنى ..

وعشت فى هذه الحجرة الفخمة أياما أخرى .. يالله ! لم كل هذا ؟! خدم وأتباع ، ونور يخطف البصر ، وموقد كهربى يبث الحرارة فى كل مكان و .. و .. ولكننى كنت أنظر حولى كالغريب وأتنهد ، ثم أطلق العنان لأفكارى ، أين دارى الريفية ؟! أين فرنى أتمدد عليه ؟! وأين « أم الهنا » تخدمنى ؟

ثم استطعت أن أفارق الحجرة وأخرج الى الحديقة . لقد كانت فسيحة جميلة التنسيق . ولكن أين هى من

حقلى ؟! وهذا البستانى الأبله الذى يقوم على شأن الحديقة ، لم نستطع أن نتفاهم معا على شىء . فكأننا أجنبيـــان لا يعرف كل منا لسان الآخر . كنت أسخر منه كلمـــا رأيته ، فالتزم أن يتجنبنى ، حتى التحية لم يعد يبادلنى اياها !

وترادفت الأيام وأنا لا عمل لى ، أقضى نهارى جالسا أمام البيت أتثاءب متعجبا من بطء الزمن . كان يخيل لى أن اليوم لن ينتهى ، وانني سأقضى السنين لا أغير جلستى . وكان كثير من الزوار يقبلون على يمطروننى وابلا من الاسئلة ، فاذا لم يحظوا منى برد سمعتهم يتهامسون : ما أغباه من بواب !

لا شىء يعوزنى فى هذا المنزل الرحيب ، ولكننى مع ذلك أحس أننى يعوزنى كل شىء ، فأقضى يومى صامتا أتصفح همومى !

▭

واستغرق « كساب افنـــدى » فى الصمت ، ثم أدنى مقعده من مقعد « الحاج ابراهيم » ، وقال فى صـــوت خافض ، وهو ينظر اليه نظر الحالم :

ـــ لقد حدث لى أمس حادث غريب ، أريد أن أفضى به اليك ، علك تستطيع أن تفسره لى : بعد أن تناولت العشاء قصدت الى حجرتى ، وجلست على المقعـــد ذى المسندين ، وكنت تعبا ، فأرحت رأسى على ظهره . ولكننى لم أطبق جفنى ، أؤكد لك أنهما كانا مرفوعين . ومضى وقت لا أعرف مداه وأنا أعرض فى مخيلتى شتى

المناظر بين قديمة وحديثة . وفيما أنا على هـــذه الحال سمعت صوتا من بعيد يغنى أنشودة ريفية قديمة ، كثيرا ما ترنمت بها فى شبابى ، فأصغيت اليها فى اقبال ، وشعرت بقلبى يملؤه ذلك النور القديم ، وأحسست دفئا طيبا يشمل جسدى ، وامتلأ أنفى برائحة البرسيم الطيبة .. وكان الغناء يعلو ويقترب رويدا ، ولكن من أية جهة ؟ ومن هو الذى ينشد ، أفرد أم جمع ؟ وبعـــد حين أصبحت الحجرة تتجاوب بتلك الأنشودة ، وشعرت بنشوة عظيمة ، وتمثل لخاطرى أننى أرى أشباحا تروح وتغـدو أمامى ، وأنعمت النظر فيها ، فاذا بهم أصحابى الفلاحون وزوجاتهم ، كلهم فى حللهم الجديدة التى يلبسونها فى يوم العيد ، كلهم مبتهجون ينظرون الى بعيونهم المكحلة .. ثم رأيتهـــم يختفون . كانت تطويهم جدران الحجرة ، وأخذ الغنـــاء يتضاءل رويدا رويدا حتى أصبح ضـــعيفا لا تكاد أذنى تعيه ، ثم عم الحجرة الصمت ، وقمت من مقعـــدى وأنا أناديهم صارخا ملحا .. لقد كنت أشعر أن قلبى يتمزق ، ورأسى يحترق .. وهرول الى ابنى ، وعنى بأمرى ، فأرقدنى على السرير وأشربنى دواء سرى فى على أثره فتور ورغبة فى النوم ..

□

فى مساء اليوم التالى ، خرج من منزل الطبيب رجل يسير فى حذر وتلصص ، يلبس الملابس الريفيـــة ، وهو ملثم الوجه بطرف من الصوف ، وكانت وجهته محطة السكة الحديدية ، ولما وصل اليها أخذ تذكرة فى الدرجة

الثالثة الى بلدته « الشياخات » . وأخذ مكانه فى العربة ، وهو يلتفت يمنة ويسرة فى شيء من الذعر ، وما كاد القطار يتحرك حتى انفرجت أسارير وجهـــه . وغمره البشر والاطمئنان ، وغمغم بكلمات حمد وشكر لله

وسار القطار يشق طريقه فى الظلام ملولا ، يصـــعد زفراته المتقطعة . لقد كان هو وركابه كسالى متعبين ، يغمرهم خمول ثقيل ، ما عدا هذا الرجل الريفى المشرق الوجه ، فقد كان يقظا كثير الحركة ، يعجب لبطء القطار ويستعجله ، وكلما وقف القطار فى محطة أطل من النافذة متطلعا ، وجعل يرسل بصره حوله مدققا فاحصا ثم يعود الى ما كان عليه ، وقد أخذ صبره ينفد .. وأخيرا ظهرت « الشياخات » يلفها ظلام كثيف ، ويرفرف عليها صمت شامل ، فعرفها الرجل دون أن يراها ، عرفها بشعوره كما يعرف الحيوان موطنه بغريزته ، وأحس رجفة تتمشى فيه ، وتطلع من النافذة يريد أن يمزق بنظره الحاد حجاب الليل الأسود الذى يغشى كل شيء . رأى أبراج الحمام القائمة عند مدخل البلدة ، شاهد الجامع المتهالك بعضه على بعض ضعفا وهرما ، وهذه أشـجار التوت الخمس الشامخة بفروعها فى الجرن ، تلك التى طالما تفيأ ظلالهـــا الوارفة واستمرأ ثمرها اللذيذ .. وهب عليه ذلك النسيم الرطب ذو الرائحة الخاصـــة ، النسيم الذى صحبه فى مدارج حياته كلها ، والذى يســتطيع أن يميزه بين ألف نسيم .. وقف القطار ونزل الرجل يقفز منــه كأنه ابن عشرين ، وترك المحطة عجلا واتجه فى خطا فسيحة نحو

الضيعة . كان الطريق خاليا الا من بعض الخفراء أخذتهم سنة من النوم ، وهم مجتمعون أمام خص من أخصاصهم ، وقبالتهم بقية من نار كانوا يستدفئون بها ، عرفهم الرجل واحدا واحدا ، ووقف برهة يتأملهم ، وقد ساوره شيء من الضيق ، وأراد أن يصيح فيهم صيحته فى سالف أيامه ينبههم الى واجبهم . ولـكن سرعان ما علت شـفتيه ابتسامة سانحة ، وتابع سيره الحثيث نحو داره ، حتى اذا ما وصل اليها عالج الباب حتى فتحه ، ودخل الدار فى سكون وهو يطوف بنظره فيما حوله ، ويشم الهواء فى لذة مسكرة ، وأحس الدفء المنبعث من الفرن ، وتشبع أنفه برائحة الخبيز ، ولمح عباءته القديمة معلقة على الحائط كأنها ترحب بقدومه ، و « أم الهنا » مكورة على فراشها بالقرب من الفرن تتنفس تنفسها الهادىء البطيء . كل شيء كما هو لم يتغير ، كل شيء معد لاستقباله : العباءة موجودة ، والفرن دافىء ، والأرغفة الرحراحة الشهية تملأ المشنة ، و « أم الهنا » نائمة تنتظر عودته من الحقل ، أحقا كان فى « القاهرة » ؟ أغاب عن وطنه ستة أشـهر كاملة ؟

وتحركت « أم الهنا » فى فراشها وفتحت عينيها ، فما ان وقع بصرها عليه حتى قامت فزعة وهى تقول :

ــ من ؟ من أنت ؟!

وكادت تخرج من حلقها صرخة استغاثة ، ولكن الرجل تقدم نحوها بطيء الخطا ، وهو يقول ضاحكا :

ــ أنسيتنى يا « أم الهنا » ؟

ووقفت المرأة تدعك عينيها فى دهشـة وتردد . ثم اندفعت بكل قوتها نحوه ، وجعلت تقبل يده ، والدمع يطفر من عينيها ، وقالت فى صوت متهدج :

ــ سيدى ! سيدى !

وجلس « كساب » على سطح الفرن ، وقعـدت المرأة على الارض بالقرب من قدميه ، وسألته قائلة :

ــ لماذا لم تخبرنا بقدومك ؟

ــ وهل كنت أعلم أنا بموعد سفرى ؟!

واخذ يسألها عن أشياء مما يتصـل بالضيعة : عن « البنهاوى » ورفاقه ، عن الارض وما أنتجت من محصول، عن همة الفلاحين فى العمل ..

كان يصغى طويلا ولا يتكلم الا قليـلا . وكثر تثاؤبه وتمطيه ، وقامت به رغبة فى النوم ..

ونهضت « أم الهنا » متسللة الى خارج الدار ، وهى لا تستطيع كتم ذلك السر العظيم فى صدرها . ذهبت الى جارتها تزف اليها هذه البشرى

وبعد قليل سمع « كساب » هرجا ومرجا واصـواتا مختلفة ، مصحوبة بأغاريد النساء . وكان مسندا ظهره الى الحائط وهو فى شبه غفوة خفيفة ، ففتح عينيـه وابتسم

وتدفق الناس من الباب يحيون زعيمهم الكبير ، فقام الى لقائهم ، وبسط لهم ذراعيه يحتضنهم ويحتضنونه ، ويقبلهم ويقبلونه . ثم صاح « بأم الهنا » قائلا : القهوة حالا للضيوف !

وجلسوا جميعا على الارض ، و «كساب» معهم يتبادلون في اختلاط عبارات الترحيب والايناس

وألح على « كساب » التعب وعاد النوم يغزوه في عناد

يالله ! انه يطبق أجفانه ويسند رأسه الى كتف جاره ..

وشعر بأيد تحمله الى سطح الفرن ، وتمدده عليه

ثم لم يلبث أن انساقت به الاحلام كل مساق !! ..

جاء الشتاء

هذه النفس البشرية في أعماقها حين تهفو الى الخير ، تعبث بها الاهواء ، فتأبى الا ان يكون احسانها .. على حساب الغير !

الشتاء على الأبواب ...

انه ليشعر الناس بمقدمه المخوف ، وانه ليقدم دائما فى موكب من ضجة واصطخاب . أليس هو موسم العواصف والزوابع ، موسم الرعود والبروق ، فكيف ترجو اليه أن يقبل عليك فى سكينة وهدوء ؟

الشتاء على الأبواب ...

لا خيرة للناس فى استقباله ، فليس لهارب منه نجاء ، سيان عنده من هش له ، ورحب به ، ومن نقم عليـــه ، وتحرز منه

كانت أسرة « العنتيل » ممن يمقتون الشتاء ، أبغض شيء اليها هذا الزائر البارد الطلعة ، الثقيل الوطأة ، هـذا الذى يعلن قدومه فى هجمة غاشمة ، لا يأتى البيوت من أبوابها فى تحشم واستحياء ، ولكن يقتحم النوافذ والمسارب والشقوق فى اجتراء ، فيزلزل السماء والارض ، ويقلب الكون رأسا على عقب

وأســرة « العنتيل » تأوى الى بيت من تلك البيوت المهشمة التى عاثت فيهـا تصاريف الزمان ، ينزوى فى أطراف حى « القلعة » ، كأنه جندى اثخنته الجراح فتخلف عن رفاقه فى الميدان ، وبقى وحده يعانى سكرات الموت

وذات عشية من شهر نوفمبر ، راع الأسرة أن السقف من فوقها يضطرب كأنه يوشك أن يخر ، وأن الارض من

تحتها تميد كأنها توشك أن تنخسف ، وأن مصاريع النوافذ تتصادم وتتضارب

فى هذه الليلة ، علمت الاسرة على يقين أن وافدالشتاءقد حل ، وأنها تستقبل مكاره ذلك الضيف الثقيل ، فعليها أن تتجهز له ، وأن تروض نفسها على مصاحبته ، حتى يرحل عنها بعد أشهر معلومات ...

وهرول « العنتيل » الى صوان الملابس ، فجعل يقلب فى محتوياته ، لكى يتفقد معطفه القديم الذى لزمه أشتية متوالية ... حقا تدسست الى هذا المعطف عوامل الرثاثة والبلى ، ولكنه استطاع أن يسبغ الدفء على صاحبه ، وأن يحميه خلال الشتاء من معقبات البرد القارس ... وكفاه !

أطال « العنتيل » بحثه فى أركان الصوان وزواياه ، فلم يجد للمعطف من أثر ، فأقبل على زوجه يسألها عنه ، ولكنها أبت أن تنصت له ، اذ كانت بمتاعها هى وأولادها فى شغل شاغل ، فتابع الرجل سؤاله فى الحاح واهتياج .

فرفعت الزوجة بصرها اليه مدهوشة تقول :

ـ أى معطف تسألنى عنه ؟ المعطف المهلهل الذى علمت منك غير مرة أنك زاهد فيه لن ترتديه ، وأنك معتزم شراء معطف جديد ؟!

ـ انى فى حاجة اليه ... على به

ـ ألست معتزما شراء معطف جديد ؟

ـ قولى لى : أين أجد معطفى القديم ؟

ـ لقد جاءنى أمس الرجل العجوز المسكين ، ساعى الادارة الذى يعمل تحت امرتك ، فأشفقت عليه من برد

الشتاء ، فدفعت المعطف اليه ، التماسا لدعوة صالحة منه

وفغر « العنتيل » فاه مذهول النظرات ، وكاد الغضب يبلغ به حد الثورة ، لولا أن عاجلته الزوجة بقولها :

ـ أنت رجل عطوف القلب ، ولك عند الفقراء مآثر ، والألسن تلهج بالثناء عليك ، فهل تبخل على ساع مسكين بذلك المعطف القديم ينجيه من هلاك محقق ؟!

وأطرق الرجل يفكر هنيهة ... لقد صدقت زوجه فى وصفها اياه بأنه حسن الاحدوثة فى الناس ، وأن قلبه فياض بالخير والبر ، ولكن ذلك كله لا يبلغ عنده مبلغ التفريط فى معطفه العتيد ، ذلك الرفيق الكريم الذى لا يعوض ...

لا ينكر « العنتيل » أنه تحدث يوما فى شأن اعتزامه شراء معطف جديد أنيق ، يلائم منصبه فى رياسة قلم التسجيل بمصلحة التنظيم . ولكن أين المال الذى ينيله ذلك المطلب المرموق ؟

وهم بأن يأخذ على الزوجة سوء تصرفها حين وهبت المعطف ، قبل أن تستأذنه ، فألفى الزوجة تسبق اليه وهى تقول :

ـ ألم يؤكد لك رئيسك أنك حاصل على الترقية حتما هذه الايام ؟ سيتيسر لك المال ، فلا تحمل هما لثمن المعطف الجديد

وألفى « العنتيل » نفسه يغمغم ولا يبين ...

وفى الصبيحة من غده ، ترك بيته قاصدا مصلحة التنظيم ، كدأبه كل يوم ، فما كاد يتخطى عتبة الباب حتى تعاورته الرياح ، فأسرع يتكمش فى اهابه ، ويضم حواشى سترته

اليه ، ورفع بنيقة السترة يحمى عنقه الهزيل المعروق . ثم جد فى السير ، كأنما يبارى هذه الريح الهبوب . وفى أثناء سيره بنى عزمه على أن يتحدث الى مدير الادارة فى أمر الدرجة المرجوة ، حتى اذا نالها استطاع أن يحصل على معطف جديد يجابه به جبروت الشتاء ، ويزهو بجدته ورونقه على الأقران ...

وأقبل على حجرته ، فكان أول من لقيه الساعى العجوز، ربيب نعمته ، ذلك الذى تلقى من يد الزوجة هبة المعطف العزيز ... وتراءى له الساعى وضاح الجبين يرفل فى معطفه ، لا يبالى عصف الهواء ، وطفق يتقافز حول « العنتيل » مرحبا به ، شاكرا له ، يرفع له يديه بصالح الدعاء ، فرد « العنتيل » تحية الساعى — أو الداعى — فى لهجة طابعها التجفظ والاستعلاء ، وراح يرمق المعطف وهو يلف جسم الرجل العجوز ، كأنه درع سابغة تكفل له الوقاية والامان . ثم انفتل يجلس الى مكتبه ، وهو يسوى بنيقة سترته ، وجعل يبسط قامته ، ويرفع هامته ، يريد أن يبدو فى مظهر شاب رياضى يتحدى عوادى الأجواء

ولبث بعض ساعة فى لمة من اخوانه ، يخوض معهم فى حديث مملول ، حتى علم بمقدم المدير ، فانطلق الى حجرته يحييه تحية الاصباح فى أدب بالغ ، فألفاه يخلع معطفه ، فابتدره يتلقاه عنه ، وحمله فى عناية الى المشجب عن كثب منه ، ثم انعطف يقول :

— كل عام وأنتم بخير ... لقد بكر الشتاء هذا العام ، وقد أحسنت صنعا يا سيدى المدير بارتداء المعطف

فهمهم المدير يقتضب الحديث :

— الحيطة خير

— حقا ان الحيطة رأس الحكمة ، ولكنها ليست ميسورة لكل راغب

فنظر اليه المدير بمؤخر عينه يقول :

— كيف ؟

— متى استطاع المرء أن يحتاط كان له أن يفعل ، فاذا لم يقدر ...

وفطن المدير الى أن « العنتيل » يطاوله فى الحديث لحاجة فى نفسه ، فزوى حاجبيه ، وقال له :

— كل امرىء يستطيع أن يدبر أمره ، جهد طاقته ،وفى حدود ملابساته

وانكفأ المدير على مكتبه ، يتشاغل بتقليب ما بين يديه من أوراق ، فتدانى منه « العنتيل » يقول فى نبرات ضارعة :

— كيف ندبر أمرنا ونحن على حال من السوء لا نملك معها شيئا من التدبير ؟

فرماه المدير بالنظر الشزر ، وقال له فى ضجر :

— لقد رغبت اليك أمس فى انجاز الرسائل المعطلة ، فانشط لها اليوم

فشرع « العنتيل » يفرك يديه ، وهو يقول :

— عندى كلمة واحدة أحب أن أبلغها سيادتك

فقال له :

— قلها وأوجز

— الدرجة ... الدرجة التى وعدتنى بها هذا أوانها ،

فأنا فى ضائقة وعسر ، وهذا هو الشتاء قد أقبل ، وما أشد احتياجى الى معطف

ــ ألم يبلغك أن التعليمات تقضى بتأجيل الترقيات ؟ ليس فى مكنتى أن أرشحك للدرجة الآن ...

ــ وهل ينتظرنى الشتاء حتى تنتهى فترة التأجيل ؟ لا بد لى، من معطف ، وأنت مستطيع أن تتصرف فى الامر بحنكتك ، حتى أنال الدرجة الآن

ــ مبلغ علمى أنك تملك معطفا

فأشاع « العنتيل » ابتسامة شاحبة على فمه ، وقال :

ــ انه معطف أكل عليه الدهر وشرب

وراح يتصنع الضحك فى تظرف ، وهو يختلس النظر الى المدير ، ولكن الرجل ازداد من قطوب ، وقال له مخشوشن الصوت :

ــ عليك أن تقنع بمعطفك القديم !

ــ انه مهلهل يا سيدى ، وما يليق بمثلى فى مكانه من رياسة قلم التسجيل أن يبدو فى أسمال ...

فصاح به المدير :

ــ انك تنظر الى الدنيا بمنظار عتيق ، فجدد عقليتك ، واعلم أننا الآن فى عصر التقشف والاقتصاد وضغط النفقات لقد ولى عصر البذخ والتفاخر ... لا اسراف بعد اليوم !

فاصفر وجه « العنتيل » ، وتلعثم لسانه وهو يقول :

ــ بذخ ... تفاخر ... اسراف ... لاشىء من هذا كله !

فجلجل صوت المدير بقوله :

ــ تعود التقشف ... خذ نفسك بضغط النفقات ... الترقيات مؤجلة ... لا تضع وقتك سدى

وأدبر « العنتيل » عن مكتب المدير يجرر قدميه ، وهذه الكلمات تطن فى أذنيه : التقشف ... ضغط النفقات ... لا اسراف بعد اليوم !

ولم يكد يخطو فى البهو بضع خطوات حتى لاح له شبح « عم مؤمن » الساعى العجوز ، وهو فى معطفه السابغ يخب، والابتهاج على محياه يتلألأ ، فحدجه بنظرة نكراء ، ثم ازور بعينه عنه ، وتابع خطوه على وجهه قتام

وحاول « العنتيل » غير مرة أن يثير عند مدير الادارة حديث الدرجة المنشودة ، عله يحظى بوعد تطمئن به نفسه، فلم يجد من المدير الا ترديد نصائحه الصاخبة فى شأن التقشف المطلوب ، والنفقات التى يجب أن تضغط ، والاسراف الذى انقضى عهده ، منذ اليوم

فاستيأس الرجل ، وتوارى طيف المعطف الجديد من مخيلته ، حتى لم يبق له أثر ، بل انه لم يعد يطمع فى أن يظفر بمعطف أى معطف ، وأن كان لبيسا من سوق الأسقاط !

ومن أين له بصيص من الأمل ، وهذا مرتبه الضئيل تبتلعه مطالب البيت فى مطالع الشهر ، ولا يكاد يسد الفاقة فى سائر الايام،فلابد معه من الاقتراض،فلكل شهر دين يضاف الى دين ، وأن الديون لتبلغ مبلغا يبعث فى جسم الرجل قشعريرة دونها قشعريرة البرد

لا غرو اذن أن ينتهى الامر بالرجل الى قرار حاسم ، ذلك أن يقضى الشتاء بلا معطف ، وليكن ما يكون !

ولحظ الناس من شأن « العنتيل » أنه قد أصبح على حين بغتة داعية من دعاة التقشف وضغط النفقات ، لايفتأ يبشر بالدعوة فى كل مكان ، تارة يتغنى بها لسانه فى طرب ، وتارة يتحمس لها ويخاصم عليها فى اهتياج ، ولطالما بح صوته وهو يقول :

ــ الاسراف ... الاسراف ... انه آفة البلد ... انه علة العلل ... علينا أن نناهضه ولا نتهاون به ... لنتخذ من التقشف سنادا ندعم به حياتنا الاقتصادية التى أخلت بها الجهالة والغباوة والحمق ... اياكم والسرف ... وازنوا بين الدخل والخرج ... اضغطوا النفقات !

بمثل هذه الجمل والعبارات ، كان يتحدث الى أقرانه فى العمل ، وجلسائه فى المشرب ، وأهله فى البيت ... فذاع أمره وشاع ، وحلا لبعض الظرفاء أن يلقبه «بطل التقشف» فعرف بهذا اللقب ، وتسامع به الناس ، فتناقلته الافواه فى تهكم كظيم !

وعلم مدير الادارة بما صار اليه أمر « العنتيل » فرضى عنه ، وأغراه بالمزيد ، اذ كان له فى ذلك صارف عن اقلاقه باطلاق الدرجات وصرف العلاوات ... وهذا فضل عظيم!

وتعمق «العنتيل» فى دعوة التقشف وضغط المصروفات، فاذا هى فى رأسه فلسفة شاملة يطبع بها آراءه فى الحياة ، ونظراته الى النـاس ، تراه فى مجرى حديثه الدارج الى الرفاق يتطرق الى موضوعات اجتماعية نفسية ، يطبق عليها قواعده الجديدة ، فان تحدث مثلا فى « فلسفة العادة » اسهب يقول :

ــ يسير علينا أن نكتسب الحميد من العادات ، وأن نبرأ من كل عادة سيئة ممقوتة ، متى كانت لنا ارادة ... ارادة صلبة ... ارادة من حديد ... هاكم مثلا ، لا أتصيده لكم من بعيد ، فانى أنا « المثل » ! ... لقد اعتزمت هذا العام أن أعود جسمى احتمال ما يأتى به الجو من أهوية وعواصف ، فمن العار أن يستعبدنا هـذا الشتاء ، وأن يريدنا على ارتداء أكسية نحن عنها فى غناء ... لقد تمردت على البرد ، ورفعت فى وجهه راية العصيان ، وأبيت أن أرتدى معطفا كما كنت أفعل ، وهأنذا أصرع الشتاء فى عزم ومضاء ... من شاء اكتساب عادة أو انتزاع عادة ، فليكن سلاحه قوة الارادة !

وما أن يبلغ الرجل من خطابه هذا المبلغ ، وهو فى فورة من حمية وتحمس ، حتى يشتد به العطاس ، ويحتد عليه السعال ، فاذا جلساؤه يتبادلون النظرات ، وقد تراصت على أفواههم بسمات السخرية ، وتسابقت على ألسنتهم كلمات التنادر

أما علاقة « العنتيل » بالساعى العجوز « عم مؤمن » ذلك الذى نال المعطف ونعم به ، فكانت علاقة يشوبها شىء من الغموض والانقباض ، على الرغم من مظاهر الألفة التى تبدو للعيان فى كثير من الأحيان

ان الساعى ليذكر « للعنتيل » جميل صنعه به ، فهو يكن له التكريم والاكبار ، ويحرص على خدمته ما وسعه أن يحرص ، ولكنه لا يملك الا أن يستريب منـه ببعض

تصرفات قاسية لم يكن يعهدها فيما سلف من أيام ان « العنتيل » يلقاه فى هشاشة وبشاشة ، ويمتدح اخلاصه وولاءه ، بيد أنه ينتهز بعض الفرص ، فيغمزه غمزات يألم لها أشد الألم ، وهو يكيل له فى الحين بعد الحين ألوانا من النقد والتهكم تثير عليه من حوله،فيسخرون منه أو يشمتون به ، أو يصبون عليه جام اللوم والتثريب

ولا ينسى « عم مؤمن » أنه كان يوما متخذا جلسة راحة واستجمام ، وقد أخرج علبة لفائف التبغ ، يبغى أن يدخن واحدة ، فاذا « العنتيل » يهل عليه فى جمع من الرفاق ، وبين يديهم أوراق يريدون عرضها على المدير ، فاستوقفهم « العنتيل » أمام الساعى العجوز ، فاضطرب الرجل فى جلسته ، فنهض يلم شعثه ، وهم بأن يوارى علبة اللفائف فى جيبه ، فما كان من « العنتيل » الا أن عاجله ينتزع العلبة من يده ، وهو يصيح فى لهجة مريرة ، ظاهرها مزح ومفاكهة :

ـ ماشاء الله كان ... ماشاء الله كان ... علبة لفائف «الجمل» ... اللفائف الفاخرة ... يالحظك العظيم !

فجعل الساعى يلغو ولا يكاد يبين ، ثم حاول أن يتضاحك وهو يقول :

ـحقا مأعظمه من حظ... ولكن ألا تعلم ياسيدى ...

فقاطعه « العنتيل » متعاليا بضحكته العابثة :

ـ أنت تؤثر الدخان الامريكانى ، لأنك ساع أمريكانى... لا نظير لك ... بكم اشتريت هذه العلبة ؟!

واعتدل « عم مؤمن » فى وقفته،وهو يجاهد فى مسايرة هذه المناكفة الثقيلة بقوله :

ـ ليست هذه يا سيدى علبة اشتريتها ... انها حطام علبة ... صادفتها ملقاة فى زاوية من حجرة المدير ... لا تحوى الا لفافتين محطمتين مثلى !

فأخذ « العنتيل » بيد الساعى ، وهو يقول :

ـ لاتحسبنا ننخدع بهذا الكلام...أنت رجل لكعقلية رجعية سيئة ، فلتقوم عقليتك ، وانى لوجه الله أنصح لك . مالك ولتقاليد السادة المترفين ؟!

ثم طفق يربت ظهره ، وهو يقول :

ـ ارجع على نفسك بما تنفقه فى سبيل التدخين ... اشتر ما ينفعك ... ذلك خير وأولى

واستأنف « العنتيل » سيره مع الرفاق ، وهم يتنادرون على الساعى العجوز المسرف الذى يأبى الا أن يتعاطى الفاخر من الدخان ... وظل الساعى ماثلا فى وقفته ، يحدق الى « العنتيل » ورفاقه بعين تضطرم ، ثم قذف بعلبة اللفائف فى عرض البهو ، وهو يبرطم ويزمجر

ولا ينسى كذلك « عم مؤمن » أنه كان مرة يقضم من شطيرة ضئيلة يسد بها جوعته ، والوقت ضحى ، والحركة على أشدها فى مكاتب الموظفين ، ففجأه « العنتيل » وهو يأكل ، وحدجه بنظرة شزراء ، وقال له :

ـ سبحان الله ... انت دائما لا يفرغ لك طعام ... ما رأيتك الا مشغول الأضراس بشىء تأكله !

فاسرع الساعى يدرأ التهمة عن نفسه بقوله :

ـ اقسم لك ياسيدى أنى خرجت من الدار دون أن اصيب فطورى

فلاحقه « العنتيل » محنقا يقول :

ـ وماحاجتك الى الفطور فى الدار ، وفى مقدورك أن تخرج لتتناوله فى « جروبى » أو «سميراميس» أو ما شئت من مطاعم العظماء ؟! ... يا ناس ، جانبوا الجشع ... أقمعوا شهواتكم ... أين التقشف ؟

فتلاحق السعاة يسمعون حديث « العنتيل » فالتفت اليهم يقول :

ـ الدنيا كلها تسير فى منحى ، و « عم مؤمن » ساعى الادارة يسير فى منحى وحده !

ومضى منتفشا يترنح فى مشيته ، والساعى يشيعه بغمغمة ثائرة تحتبس بين شدقيه ...

وتكررت أمثال هذا المشهد العصيب ، والساعى العجوز فى دهشة وحيرة ، يعجب لما يجبهه به « العنتيل » من مناكدة وعنت ، ويرجو أن يرجع الرجل الى سابق بره به ، واحسانه اليه

واستمرت الحال على هذا النحو ... كلما تعالت ولولة الرياح ، واشتدت صولة الشتاء، ازدادت حماسة «العنتيل» فى الدعوة الى التقشف وضغط المصروفات ، وتوهجت بطولته فى النهى عن البذخ والترف ... وتبع ذلك كله انتهاز كل فرصة للتهجم على « عم مؤمن » واقتفاء عثراته،

والانحاء عليه باللوم والتقريع ، واتهامه بأنه مسرف متلاف

وتداعى الناس الى « أسبوع معونة الشتاء » وتنادوا بالاقبال عليه والبذل له ، واذن بالمسير فى طول البلاد وعرضها « قطار الرحمة » حافلا بالامتعة والاكسية يوزعها على المعوزين والعجزة ، وتطايرت أخبار مواكب المعونة تجول فى الأحياء ، وتخترق المسالك والدروب ، تجمع من البررة الاسخياء ما فضل عندهم من أثواب وأشياء ، لترجع بها على المحرومين والعفاة

وجلجل صوت « العنتيل » فى مصلحة التنظيم يحث الرفاق على التصدق ، مذكرا بحق السائل والمحروم ، مشيدا بما يلقاه المحسن عند الله من مثوبة وجزاء

وحل اليوم المشهود ، ودخل « موكب المعونة » دار المصلحة ، ليتلقى عطايا الخيرين من الوان المتاع ، واخذ الموكب يتنقل بين الحجر والمكاتب ، محوطا بالحشد الزاخر، ومن حواليه صياح التهلل والتحمس والترحاب

ومضى الموكب يجتاز البهو الى الحجرة التى تضم « العنتيل » ورفاقه ، فما أن تدفق الجمع على الحجرة حتى اعتلى « العنتيل » مقعده ، وانبرى خطيبا يؤيد هذه الروح التى حدت الى معونة الفقراء على مكابدة الشتاء ، فقوطعت خطبته بالتصفيق الحاد، ونزل عن الكرسى يتبرع بلفيفة انطوت على طربوش قديم جلبه معه من البيت ليجود به ، فشكر له القائمون على موكب المعونة ، وفصلوا عن الحجرة يتلقفون ما يسخو به المتبرعون من هنا وهناك ،

فتبعهم « العنتيل » الى البهو ، وفيما هو يرجع اذ حانت منه لفتة الى الركن الذى يخلد اليه السعاة عند الفراغ من العمل . وكان على أحد الكراسى شيء يتخايل، فما أن لمحه « العنتيل » حتى جعل ينتهبه بنظرات سراع ، ثم أحس بقلبه يخفق ، ويديه ترتجفان ، وفى هذه اللحظة كان الموكب يتأهب لمبارحة المصلحة ، والناس من خلفه حشود ، فألفى « العنتيل » قدميه تدفعان به الى ركن السعاة ، واذا هو يختطف ذلك الشيء الملقى على الكرسى ، ويعجل به الى الموكب ، وهو يتصايح :

ـ هذه منحة « عم مؤمن » ساعى الادارة ... لقد أوصى لكم بها ... ومن تطوع خيرا فهو خير له !

ودفع المعطف الى الرئيس القائم على جمع المعونة ، فتلقاه بالحمد والثناء ، واصطخبت فى الجو هتافات حارة بحياة « عم مؤمن » ساعى الادارة الهمام !

وبعد قليل خرج الساعى من حجرة المحفوظات فى سرداب المصلحة ، وكان يودعها بعض الملفات ، فلما اقترب من بهو الادارة سمع الهتاف باسمه ، فهرول يستخبر عن سر هذا الهتاف ، فأنهوا اليه الخبر ، فانسدلت على عينيه غشاوة من دهشة ، وانبعث فى أعقاب الموكب يستنقذ معطفه ، ولكن عز عليه أن يشق الزحام ، فحاول أن يزعق بأعلى صوته ، فذابت صرخاته فى عباب الضجيج !

وتراجع الساعى الى ركنه فى البهو ، والدنيا تدور به ، وصوته يختنق على شفتيه ، وما عتم أن تخاذلت أوصاله ،

فتهاوى على الكرسى ، مغشيا عليه ... وفى هذه اللحظة أحس الرجل يدين رقيقتين تحيطان به ، وصوتا عطوفا يتحدث اليه ، فرفع جفنيه قليلا يتبين ، فرأى « العنتيل » حياله أول من سارع الى نجدته ، والاطمئنان عليه !

وبينما هو على تلك الحال ، كان موكب المعونة يتدفق فى الشارع ، والاصوات تتعالى باسم « عم مؤمن » ساعى الادارة العظيم ، هاتفة بحياته تمجد فيه بطولة الخير والاحسان !